«للنساء فقط» في الجزيرة
من المكبوت إلى الكابت

نهوند القادري

مقدمة عامة

في مشهد إعلامي عربي يعجّ بنساء تروِّج تصريحاً أو تلميحاً للسلع والبرامج والمحطات، من اللافت أن تفرد محطة «الجزيرة»[1] مساحة للنساء من مختلف البلدان يخضن فيها بموضوعات تطالهن، مما يحدونا للتساؤل عن جدوى تخصيص برامج من هذا النوع في الفضائيات العربية وعن إمكانية استفادة النساء من هذه المساحة المتاحة لهن لتشكيل خطابهن عن أنفسهن.

لكن تبدو محاولة قراءة خطاب الجزيرة حول النساء رحلة بحثية محفوفة بمحاذير الانزلاق في متاهات جمّة، وذلك نظراً: **أولاً**، لخصوصية الخطاب المتلفز بحد ذاته لجهة استناده إلى بنى سلطوية تتحكم في آلياته وترفده بخصوصية معينة، إضافة إلى حاجة المجموعات الاجتماعية المنتجة لهذا الخطاب إلى خطاب يبرر أعمالها. وهذا الأخير لا يُظهر دائماً

(١) تأسست قناة «الجزيرة» في تشرين الأول عام ١٩٩٦ وهي تبث يومياً الأخبار وبرامج سياسية وثقافية من قطر. وكانت انطلاقتها إثر فشل التعاون بين قناة «بي بي سي» وقناة «أوربت» إثر إصرار الشبكة على بث مواد سياسية حساسة شملت لقاءً مع المعارض السعودي المقيم في لندن محمد المسعري. وفي فترة إنهاء التعاون كان التخطيط من أجل إنشاء قناة «الجزيرة» في الدوحة قد قطع شوطاً بعيداً. واسست قناة «الجزيرة» بمشاركة عشرين من محرري «بي بي سي». انظر في هذا الصدد: ادمون غريب وخالد منصور «الإعلام العربي على مشارف القرن الواحد والعشرين بين مطرقة العولمة وسندان الدولة»، باحثات ٦، «الإعلام والاتصال في مجتمعاتنا». ١٩٩٩–٢٠٠٠ بيروت، المركز الثقافي العربي وتجمُّع الباحثات اللبنانيات.

المحتوى الرمزي الفعلي إنما أحياناً يخفيه وأحياناً يحرِّفه، لذلك علينا توخي الحذر في تتبُّع الخطاب الإعلامي[٢].»

وثانياً لخصوصية «الجزيرة» كمحطة تلفّها مفارقات عديدة[٣]، إن كان على صعيد المالكين والممولين لها أو على صعيد العاملين لديها، أو البرامج التي تنتجها أو المواقف الصادرة عنها أو على صعيد الجمهور الذي يتابعها. إذ إن كل فعل اتصالي هو موضوع للتبادل بين فعاليتين: الأولى المتكلِّمة والثانية المستمِعة، والمعنى يعود للعلاقة القصدية التي يقيمانها فيما بينهما.[٤]»

وثالثاً خصوصية البرنامج المراد كشف خطاب الجزيرة من خلاله، إذ إنه برنامج مِنْ وعَنْ وإلى النساء والنساء فقط. فالتسمية وحدها تستفز الباحث وتحفّزه على طرح العديد من التساؤلات. لماذا المبالغة بالتسمية «للنساء فقط» وهل كلمة «فقط» عازلة فعلاً بين عالمَي الرجال والنساء؟ وهل البرامج الأخرى لا تعني النساء؟ وهل هذا البرنامج يعني فعلاً النساء وحدهن؟ وهل مرجعيته بحت نسائية؟ وإذا كانت كذلك لماذا تتخلله آراء رجال أو بالأحرى لماذا القماشة الخلفية له هي بمعظمها من صنع الرجال؟ أم أن التسمية حصلت من باب أن الميديا مدعوة لأن تنتج بموازاة الخطاب الإعلامي خطاباً مبرراً لوجودها ولأنها لا ترتاح للقول المباشر: إليكم ما تجب معرفته، فإنها لا تكف عن القول: إليكم مبررات إعلامنا لكم.»[٥]

وكي لا يزيد هذا البرنامج على مفارقات الجزيرة مفارقات مضاعفة، سوف نحاول تلافي المنزلقات الواحدة تلو الأخرى: تلافي تحليل خطاب الجزيرة ككل حول النساء وحصر الموضوع ببرنامج «للنساء فقط»، لا سيما وأنه تبين لنا أن الجزيرة تناولت موضوع المرأة في برامج حوارية أخرى وبموضوعات ملموسة وحساسة مع محاورين رجال[٦]. إلى جانب حصر عينة الدراسة بـ١٢ حلقة متتالية زمنياً تمتد من ٩-٦-

---

(٢) Patrick Charaudeau. "Le discours d'information mediatique -la construction du miroir social". éd. Nathan. Paris 1997. p.7.

(٣) كُتبت الكثير من المقالات حول إشكالية «الجزيرة» سلباً وإيجاباً. انظر بهذا الصدد: الحياة: ٦-١٠- ٢٠٠٠ و١٥-٣-٢٠٠٠ و١٤-١-٢٠٠١ والسفير: ٢٥-٣-١٩٩٩ و٢٤-٣-٢٠٠٠. كذلك انظر: د.مفيد الزبيدي. «قناة الجزيرة - كسر المحرمات في الفضاء الإعلامي العربي». دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٣. كذلك انظر: أحمد أبو مرعي «الفضائيات العربية بين النقل والخصوصية- الجزيرة نموذجاً» وزينب الطحيني، «الإعلام وقضايا المرأة - «للنساء فقط». مكتبة كلية الإعلام والتوثيق-الفرع الأول -الجامعة اللبنانية في إطار مادة تطبيقات على مناهج البحث العلمي الإعلامي -سنة ثالثة صحافة. العام الدراسي ٢٠٠٢-٢٠٠٣ بإشراف أستاذة المادة: نهوند القادري.

(٤) Charaudeau. op. cit. p. 15

(٥) Charaudeau. op.cit. p. 30

(٦) خُصصت حلقات حول المرأة في البرامج التالية: «الانتخابات البلدية في قطر ومشاركة المرأة» و«قضية =

٢٠٠٣ الى٢٥-٨-٢٠٠٣ كعينة يمكن اعتبارها ممثِّلة لمجموع حلقات البرنامج الذي دخل عامه الثالث. وجرى تحليل هذه الحلقات من خلال العودة إلى نصوصها المكتوبة على موقع الجزيرة نت، فكان أن غاب عن التحليل بعض الجوانب الشكلية التي كان من الممكن أن تحمل مؤشرات هامة على الخطاب كمثل: الإشارة وحركة الرأس واليدين والنبرة والبسمة. مثلاً تساءل أحد الباحثين: كيف يمكن أن نعطي للابتسامة معناها الدقيق؟».(٧)

ولأن ميزة الخطاب أنه ليس مجرد أجزاء متناثرة يمكن تحليلها منفردة بل هو معنى كلي يقوم بفضل تشكُّل معين. فالأجزاء لا قيمة لها منفردة، بل قيمتها في ما تؤديه من وظائف في التشكل العام الذي ترد فيه.(٨) فإننا رأينا أنه لا جدوى من تحليل كلام الضيوف كل على حدة، لأن كلام الضيف وحده قد يصنف في خانة القول أكثر منه في خانة الخطاب. إلى جانب أن هوية المدعوين للكلام تتشكل بجزء منها مسبقاً، وما سيقولونه لن يؤخذ لأجل ما يفكرون فيه إنما من أجل من هم. والرأي هنا لا قيمة له لنفسه إنما له قيمة علائقية.»(٩)

وللخروج من كل هذه المنزلقات رأينا من الأجدى ألا نستهلك جهدنا في التحليل الكمي على أهميته لأننا وجدنا أنه لا يكفي أن نقيّم كلاماً ما ونصنفه، إنما علينا أن نعرف من أين يستمد قوته.(١٠) وإن الكلمة المعزولة ليس من معنى دقيق لها، المعنى يبحث عنه في العلاقة بين عناصر الخطاب. لذلك رحنا نبحث عن خطاب البرنامج من خلال تشريحه وكشف آليات تشكُّله المعقدة، وهذا ما سيساعدنا على فتح أفق جديد للقراءة عبر طرح إشكاليات عدة غيّرت من تعاملنا مع النص. من ذلك مثلاً تعدد الزاويا التي ننفذ من خلالها إلى المعنى حسب استراتيجيات تشكُّل الخطاب ذاته. وعندها لا بد من الاهتمام بالنتائج المترتبة عن ظواهر خطابية مختلفة مثل الإضمار والنفي والرد والمقاطعة والتكرار والتجاوز، الخ.

= المرأة في القرن المقبل» و«المرأة الخليجية وحريتها السياسية في برنامج: «أكثر من رأي» – «حقوق المرأة العربية بين الإفراط والتفريط» في برنامج «بلا حدود» – «مكانة المرأة في الإسلام» و«تحرير المرأة في العالم العربي» في برنامج «الشريعة والحياة» الذي تمت فيه محاورة الشيخ يوسف القرضاوي – «قضية الخلع» في «الاتجاه المعاكس».

(٧) Bernard Legrand. ''L'image de soi ou la communication reussie.'' ellipses. Paris 1990, éd. marketings. p.37.

(٨) د. محمد الحداد. «حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي»، دار الطليعة – بيروت ٢٠٠٢ ص. ٢٤.

(٩) Charaudeau. op. cit. p. 214

(١٠) André Robert, Annick Bouillaguet. ''L'analyse de contenu''. que sais je. PUF, Paris 1997. p.48.

غير أن تلافي تحليل كلام الضيوف كل على حدة لا يعني إغفال الدور الذي يقوم به كل منهم على صعيد تشكّل هذا الخطاب. لأنه ليس هناك من عمل اتصالي يحدد الضيف بالكامل مسبقاً، فعملية اختيار من سيتكلم تحدد المتكلم جزئياً، إذ يبقى للمتكلم هامش من المناورة ليتسنى له تحقيق مشروع كلامه الشخصي، فهو بإمكانه أن يختار طرق التعبير المناسبة مع مشروعه، إذن عقد الاتصال ومشروع الكلام الشخصي يتكاملان: الأول يحمل إطاره من الضغوط الوضعية والخطابية والآخر يحمل استراتيجيته، وهذا ما يجعل كل فعل اتصالي فعل حر إنما مراقب.»[١١] لذلك سنحاول رصد كلام الضيوف وتصنيفه إن كان يندرج في ما يسمى بخانة الاندماج الاجتماعي لجو المحطة بشكل عام أو في خانة إثبات الذات والإصرار على إضافة جديد ما على خطاب المحطة. وتوضيحاً لذلك انطلقنا من مسألة أن الخطاب هو كل نص يتكيف بسياق ومقام وظروف للتلقي وآليات للاستدلال والتأثير وآليات للإخفاء والتعمية وبروتوكولات اجتماعية تقوم على أساسها عملية التواصل. والتواصل ليس فك شيفرات، بل استراتيجيات للتأثير المتبادل. وفي كل عملية تواصل هناك وظيفتان رئيسيتان تتجهان نحو التحقق في تعارض: التواصل تحقيق لوظيفة أولى هي الاندماج الاجتماعي، بمعنى أن كل فرد يخضع لجزء من السيطرة الرمزية التي تمارسها المجموعة عبر تقنين عمليات التواصل وقواعد التخاطب مقابل أن يسمح له بالكلام، أي أن يُمنَح شرعية القول وتُقبَل مساهمته في فضاء التداول وسوق المبادلات القولية.

والتواصل تحقيق لوظيفة ثانية عكسية هي إثبات الذات، أي ممارسة السلطة الرمزية في المجموعة عبر التأثير في عالمها الذهني وتوجيه سلوكها تبعاً لذلك.[١٢]

إذن سنحاول تحليل الخطاب بشكل حركي، بصفته تحليلاً دلالياً تأويلياً يكشف الآليات الذهنية والاجتماعية التي يستند إليها الإلزام ويكشف أن كل إلزام ليس إلا ترجيحاً لأحد الممكنات على حساب أخرى[١٣]. بناء على ذلك سنحاول رصد آلية خطاب «للنساء فقط» انطلاقاً من تصورنا لعمل وسيلة الإعلام والتي تعمل بهدف جذب الشريك في عملية التبادل. وهنا تجد الوسيلة نفسها أمام مشكلة، إذ ليس فقط عليها أن تبرهن عن مصداقيتها أمام المتلقي إنما عليها أن تفعل ذلك إزاء أكبر عدد ممكن من المتلقين. وبسبب هذه الغائية المزدوجة تجد الميديا نفسها في وضع متوتر بين قطبين يعطيان عملها شرعية: المصداقية والجذب. وكلما نحتْ نحو الأولى خسرت الثانية

(١١) Charaudeau. op. cit. p. 68.

(١٢) د. محمد الحداد. «حفريات تاويلية». مرجع سبق ذكره، ص. ٢٤-٢٧.

(١٣) المرجع نفسه، ص. ٣٣.

والعكس. وهي تعي ذلك وتعي أن لعبتها تقتضي السباحة بين هذين القطبين تبعاً لايديولوجيتها ولطبيعة الحدث[١٤]. فكيف إذا كان الحدث يتعلق بالنساء والنساء موضوع يدفع به إلى الواجهه مع كل توتر في العلاقة مع الآخر.

إلى جانب ذلك يلعب ممثلو الوسيلة دوراً في إخراج وتشكيل وبناء وإدارة المساحة المعدّة للمشاهدة،[١٥] يختارون المدعوين تبعاً لمعيارَي الجذب والمصداقية، ويختارون أدوات مشاهدة التبادل بشكل يرضي الشروط الفضلى للمسرحة وبشكل يحفظ لهم التحكم والإمساك بها. ينظمون توزيع الكلام، مانحين أنفسهم أدواراً مختلفة: دور المترجمين للكلام الذي يعتبرونه غامضاً، دور المتسائلين الباحثين عن دفع الآخرين باتجاه آرائهم، دور المحرضين الذين يثيرون الجدل بين المشاركين، دور المعلقين المضخمين للنواحي الدراماتيكية والانفعالية، المطلقين للاتهامات، وأحياناً الموجدين مشهداً جدلياً ممسرحاً يقوم بوظيفة التنفيس الاجتماعي وليس بمعرفة المواضيع المعالَجة. هذا عدا عن أن اختيار الموضوع بحد ذاته يحدِّد شكل الحوار لأنه يفترض به أن يكون موضع اهتمام الجمهور وهو يحدد نمط الجمهور الذي يمكن أن ينجذب إليه، وطبيعة وأدوار المدعوين وكذلك طريقة وإدارة المقدِّم. إضافة إلى أن هناك تصميماً لمعالجة الموضوع يقوم به المُعِدّون وهو يبنى تبعاً لشبكة قراءة يمكن أن تكون ناتجة في جزء منها عن أرشيف وتحقيق، والشبكة تُنظَّم حول نقاط ساخنة كفيلة بإثارة الرفض أو التأييد. أما المدعوون فإن هويتهم بجزء منها تتشكل مسبقاً والقيمة المُعطاة لهم من قبل القييمين على البرنامج ليس، كما ذكرنا، لآرائهم إنما للقيمة العلائقية لهذه الآراء ومدى تضاربها أو توافقها. وهؤلاء يتوجب عليهم أن يقاتلوا للأخذ أو للاحتفاظ بالكلام أو أن يهربوا من الأسئلة المفترض أن تُطرَح عليهم، والأهم يتوجب عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار أنه بعيداً عن الآثار التي يولدونها على محاوريهم مباشرة، هناك الآثار على المشاهدين الذين لا يرونهم ولا يدركون ردود فعلهم، إنما يمكنهم أن يقدِّروا ثقل نظرة الجمهور وحكمه عليهم[١٦]. وهناك الاتصالات من الجمهور التي تساهم في دفع الموضوع باتجاه يرضي القيّمين على البرنامج، لأنه بغض النظر عمن يتصل بالآخر، المحطة أم المتدخلون أنفسهم، إلا أنه تبقى المحطة هي الممسكة بآليتها.

(١٤) Charaudeau. op. cit. p. 80

(١٥) Voir à ce propos: Bourdieu Pierre. "Sur la télévision". éd. Liber. pp. 13-29.
Serge Halimi. "Ces débats mediatiquement corrects". in Manière de voir: revolution dans la communication. n. 46 juillet-août 1999. éd La découverte. pp. 91-93.

(١٦) Charaudeau. op. cit. pp. 214-215.

وفيما يتعلق بالبرنامج موضوع الدراسة حاولنا في ضوء هذه المعطيات رصد آلية خطابه من خلال عدة الشغل المتمثلة في المقدمة والتقرير المُعَدّ حوله والتحقيق الذي يرافقه أحياناً والاتصالات التي ترد إليه أو هو يذهب إليها، ودور مقدمة البرنامج: حجم تدخلاتها، طريقتها في طرح الأسئلة، ردودها على الاتصالات، مقاطعتها للضيوف، ترجيحها كفة ضيف على آخر، تجاوزها لموضوعات معينة وتوقفها عند أخرى وإصرارها على بعض الأسئلة دون غيرها، تعاملها مع مضامين الاتصالات، وطريقة اختتامها للبرنامج. إضافة إلى ذلك، حجم تدخل كل من المدعوين، حجم مقاطعته من قبل المقدمة أو الضيوف الآخرين، مدى تنافره مع طرح مقدمة البرنامج أو توافقه معها، مدى ذهابه في اتجاه البرنامج أو محاولته أخذ البرنامج في الاتجاه الذي يريده هو، أين يوفق وأين يتعثر. بالإجمال لرصد الاتجاهات التي نحا نحوها خطاب البرنامج والمرجعيات التي تم الاستناد إليها إن كان على صعيد الاندماج الجمعي أو الاثبات الذاتي، فإننا تلافينا الانزلاق في الخوض في العناوين دفعة واحدة وحاولنا تصنيفها إلى أربعة عناوين تنضوي تحت الفئات التالية:

الحلقات التي تدور حول **المرأة كفاعل**، من خلال تصدي البرنامج لتقييم نشاطاتها التي تحققت على الأرض وتنضوي تحتها الموضوعات التالية: «العمل الدرامي النسوي» و«ممارسة المرأة للسياسة بين التوريث والقدرات الذاتية».

الحلقات التي تدور حول **المراة كموضوع إما مُستغَل وإما ضحية**، وتندرج تحتها الموضوعات التالية: «المرأة في الصحافة النسائية» –« المرأة والتسوق»– «استغلال الرجل لأموال زوجته»– «استغلال المرأة في الترفيه السياحي». ونظراً لاتساع المادة ارتأينا أن نتناول بالتحليل نموذجين عن هذه الفئة.

الحلقات التي تبحث **في وضع وموقع المرأة في عالم متغير**– العولمة والأوضاع الراهنة– وتتوزعها الموضوعات التالية: « المرأة وتكنولوجيا المعلومات»– «المرأة والعمل الدبلوماسي»[١٧] – «زواج فريند حل بديل أم مشكلة؟»–«المراة العربية في المنتدى الاقتصادي العالمي». كذلك هنا اضطررنا إلى الاكتفاء بحلقتين.

تبقى الحلقتان اللتان تدوران حول **المراة الفلسطينية** وهما: «أُسر المعتقلين الفلسطينيين» و«المراة الفلسطينية في الشتات». ونظراً لاتساع المادة التي سنتناولها بالتحليل ولأن هاتين الحلقتين لم تكن موضوعاتها محلاً للجدل على صعيد خطاب البرنامج المتشكل حول المرأة، رأينا أنه من المناسب عدم تناولهما وحصر الدراسة

(١٧) كان يمكن تصنيف هذه الحلقة تحت عنوان «المرأة كفاعل» لكن عند الدخول إلى مضمونها نجد أنها بغالبيتها تتمحور حول مفاعيل أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١.

بست حلقات، وإن بقيت الحلقات الست الأخرى حاضرة في الذهن لتدعم التحليل.

١- مسرح البرنامج /المكان

يُعرَض البرنامج على الفضائية العربية «الجزيرة» كل اثنين التاسعة مساء ويُعاد بثه الأربعاء الساعة الثالثة بعد الظهر. وهو من إعداد أسماء بن القادة ورفاه صبح والمخرج فريد الجابري. مدة البرنامج ساعة ونصف يتخللها فاصلان إعلانيان وموجز للأخبار. تَعاقَب على تقديم البرنامج كل من منتهى الرمحي، خديجة بن قنة، ليلى الشايب، وحالياً لونة الشبل. فيما يتعلق بالتصميم الفني للبرنامج، الملاحظ أنه لم تُعتمَد الطاولة المستديرة التي توحي باجتماع أو حلقة نقاش وأوراق وأقلام الخ، بل اقتصر التصميم على مقاعد مريحة على شكل غرفة جلوس دائرية على شكل حلقة نسائية بيتية لمجموعة من الضيفات اللواتي يتناولن مواضيع مركزية متداولة مفترضة أنها تعكس هموم النساء. أما من ناحية الألوان فكانت متنوعة بين الأصفر الفاتح والبني الداكن المتناسب مع الجو العام للمكان مما يعكس جواً حميمياً جعل من المكان بيتاً مريحاً يتسع برحابته كمّاً من النساء المتنوعات. تجلس المقدمة ذات اللباس الرصين، وإن كانت غير محجبة، على الجانب الأيسر للاستديو وتجلس الضيفات وهما ضيفتان في الاستديو بموازاتها على الجهة اليسرى، وتظهر الشاشة كبيرة إلى الجهه اليمنى من الاستديو أي من الجهه المقابلة للمقدمة تماماً، وهناك ضيفات من خارج الاستديو واحدة أو اثنتان.[١٨] والضيفات منهن مُحجبات ومنهن غير مُحجبات إنما يلتقين على أنهن متأنقات.

٢- التسلسل الزمني للبرنامج

اتبع البرنامج مساراً تقطيعياً وهي طريقة متبعة من قبل البرامج الحوارية دفعاً لملل المشاهد. يبدأ بمقدمة طويلة تتراوح بين ٤٠ و ٤٩ سطراً تقرأها المذيعة وتتضمن أهم الافكار والتساؤلات التي تحمل بداخلها الإجابات، مما يدعنا أحياناً نشعر بأن المقدمة قالت كل شيء عن الموضوع وأنه لا داعي للمتابعة، ثم غالباً ما يلي المقدمة تقريراً يتراوح حجمه بين ٣٣ و ٦٠ سطراً يقوم إما فريق الإعداد وإما مراسلات الجزيرة بإعداده من أماكن مختلفة: القاهرة- الأردن- فلسطين- لبنان- الدوحة- لندن. ويتضمن أخذ آراء ومقابلات تأتي في غالبيتها لتدعم الآراء التي وردت في المقدمة. ثم تبدأ المقدمة/المذيعة بطرح أسئلتها على الضيوف التي يبدو أنها معدّة مسبقاً وبإحكام من وحي المقدمة والتقرير. وكذلك في جزء كبير منها حاسمة وتتضمن أجوبتها في

(١٨) انظر بهذا الصدد: أحمد أبو مرعي. مرجع سبق ذكره، وزينب الطحيني. مرجع سبق ذكره.

داخلها، تقفل على الموضوعات أكثر مما تفتح آفاقاً لها. وأحياناً تُجري الكاميرا إلى جانب التقرير تحقيقاً حجمه بحدود ٣٠ سطراً مما يضفي على البرنامج حيوية ما. ويتضمن البرنامج مجموعة اتصالات من رجال ونساء ويصل أحياناً عددها إلى الستة، من أماكن مختلفة وإن كانت الغلبة للخليج ولاتصالات الرجال. كذلك يتخلل البرنامج فاصلان إعلانيان وموجز للأخبار. تنهي المقدمة البرنامج دون مصافحة الضيوف ودون إعداد خلاصة لأهم الأفكار التي نتجت عنها الحلقة، والتي ربما لا حاجة إليها لأنها وردت في بداية البرنامج. وغالباً ما تُنهي البرناج بمقاطعة المتكلمة بالعبارة التالية: «ليس في وسعنا في نهاية هذه الحلقة سوى أن نشكر ضيفاتنا وإلى اللقاء».

بالنسبة لنصيب البلدان التي دُعيت الضيفات منها للمشاركة، كان لمصر حصة الأسد بنصيب ١٠ ضيفات ثم بالتساوي بنصيب ٥ ضيفات كل من لبنان والأردن وفلسطين و٤ من المغتربات و٢ من المغرب العربي و٢ من سوريا وأجنبيتان وواحدة من دبي وواحدة من باكستان. والملاحظ عدم تواجد أي ضيفة من قطر[١٩]. وإن المشاركات ينتمين إلى النخبة: ٩ يشغلن مناصب قيادية_٨ أستاذات جامعيات –٧ مستشارات لمنظمات دولية –٧ كاتبات مخرجات وصحفيات –و٤ كادرات: محاماة وطب و٢ اختصاصهما فقه. من حيث اللباس الذي يبدو أن عملية توزيعه مدروسة من قبل المحطة بما توفر، فكان هناك ٩ محجبات. فالثياب هي مؤشر عقلي وفكري لما نسميه بالمعنى العام الجمهور.[٢٠]

٣ – في المضمون

المهم بالنسبة لنا في هذا المجال أن نُبيِّن أين ساهمت المنهجية المتبعة من قبل المحطة في رسم الإطار المسبق لنتائج الحوار، مما ألزم المشارك والمشاهد بتبني طريقة محددة للاستقراء تسوقه إلى استنتاجات حددها معدو البرنامج مسبقاً. وأين تمكّن الحوار أن ينفلت نسبياً وذلك من خلال تتبع مدى تناسب عنوان الحلقة مع المضمون الكلي لها مع العناوين الفرعية ومع المقدمة والتقرير والتحقيق. وتدخلات المقدمة/المذيعة، ومقاطعتها للضيوف وانحيازها لأحدهم على حساب الآخر وردودها

(١٩) كُتب الكثير عن أن أنباء المحطة عن قطر ما زالت قليلة، ربما لأنه لا يحدث في هذا البلد الشيء الكثير ولكن في أثناء الانتخابات البلدية الأولى التي جرت في آذار ١٩٩٩ شاهد أحد الأعيان زوجته على شاشة الجزيرة فثارت ثائرته على رغم أنها كانت محجبة وطلب من المحطة أن تسحب الصورة فاستجابت. انظر: محمد الرميحي «هل تسبب الجزيرة إزعاجاً للخليج حقاً؟» الحياة ١٥–٣–٢٠٠٠.

(٢٠) يقول Goffman: إن أفضل طريقة لاعطاء معلومات بالحد الأدنى عن أنفسنا هو أن نتوافق ونتصرف بما يتلاءم مع انتظارات المجموعة الاجتماعية.
in Bernard Legrand. op. cit. p. 15

على المتصلين، وإغفالها لأقوال، وتوقفها عند أخرى. ونحن نتتبع ذلك نعي أننا لا نفعل ذلك لنبرهن على أن المقدمة تستغل بنى السلطة لذاتها وخدمة لرؤيتها الخاصة، إنما نقدّر أن ذلك يتم بناء لتوجيهات معدّي البرنامج الذين يعملون بحرية كما يجب والـ«كما يجب» تبعاً لما يوحي به القيمون على المحطة. لذلك كان تركيزنا على الدلالات المضمرة لهذا الخطاب. لأن الإضمار ظاهرة ملاصقة لكل خطاب وهو أولاً يتمثل بطريقة لمراوغة المحرمات اللغوية أي مجموع الأفكار والألفاظ التي تمنعها الأعراف السائدة، وهو ثانياً استباق من المخاطب للاعتراضات المحتمَلة حول خطابه، وثالثاً توجيه من اللغة ذاتها لكيفية التعبير، وهو رابعاً مساحة الفراغ التي يملأها المتقبل على مسؤوليته الخاصة في حدود تفاعله مع استراتيجية الخطاب.

إن من الضروري جداً لكل اعتقاد أساس، سواء أكان ايديولوجيا اجتماعية أم موقفاً شخصياً، أن يجد للتعبير عن نفسه وسيلة لا تكشفه تماماً ولا تجعله موضوعاً للاتهام والتنازع، لكن الاعتقاد أيضاً بحاجة إلى أن يُعلِن عن نفسه فلا يجد في غير التكرار مصدراً رئيسياً لقوته ولادعائه البداهة.(٢١)

أ – المرأة كفاعل

تنبري المحطة في حلقتي «العمل الدرامي النسوي» ٩-٦-٢٠٠٣ و«ممارسة المرأة للسياسة بين التوريث والقدرات الذاتية» ٣٠-٦ -٢٠٠٣، لتقييم نشاطات المرأة انطلاقاً من أحكام معيارية تستند إلى المرجعية الدينية وإلى الأعراف والتقاليد، وتحاكم العمل انطلاقاً من مقولة أن عمل المرأة يجب أن يُكرِّس نفسه لخدمة المرأة فقط وكما يجب أن تُخدَم، تبعاً لما هو سائد، ولا تلتفت إلى نجاح العمل كعمل. هذا ما سنراه:

«العمل الدرامي النسوي »

المشاركات: إيناس الدغيدي مخرجة سينمائية مصرية (٣٥٠ س) قوطعت ٦ مرات – علا الشافعي صحفية وناقدة مصرية (٦٨ س) لم تتم مقاطعتها، وديانا جبور كاتبة سيناريو سورية (٦١ س) قوطعت مرتين. جميعهن غير محجبات. مقدمة الحلقة ليلى الشايب (٢٨١ س).

حملت المقدمة (٤٠ س) اتهامين: واحد موجه إلى الدغيدي بأن عملها أساء إلى المرأة لأنها تعمل وفقاً لمتطلبات السوق العالمية وتركض وراء الإثارة مما أوصلها إلى المحاكم، والثاني موجه إلى انعام محمد علي على أنها تتمترس في التاريخ مبتعدة عن

(٢١) محمد الحداد. «محمد عبده– قراءةجديدة في خطاب الاصلاح الديني» دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٣، ص. ٢٢.

معاناة المرأة. ثم يلي المقدمةَ تقريرٌ من القاهرة (٣٩ س) يتضمن آراءً تؤكد ما ورد في المقدمة، ويختتم بالقول: «إن التحدي هو البحث عن موضوعات ذات أهمية للمرأة وقضيتها بطريقة لا تخرج عن إطار القيم الاجتماعية التي يقبلها المجتمع». وتتضمن الحلقة أيضاً تحقيقاً من الأردن (٣٠ س) اعتبر فيه الرجال أن أفلام الدغيدي «جريئة ضد عاداتنا وفاضحة وغير لائقة مع ديننا وتسيء للمرأة العربية»، أما النساء فاعتبرنها «أفلاماً حلوة إنما تحولت إلى تجارية وجريئة زيادة وتتعامل مع المرأة كسلعة».

ورد إلى الحلقة اتصالان رجاليان: واحد من الإمارات (٢٢ س) يقول: «هل انتهت قضايا المرأة عند حدود العلاقات الغرامية الحميمة نسأل الله لكم الهداية والصلاح». وآخر من السعودية يقول: «إن أكثر أهل النار النساء» ويسأل دغيدي: «هل ما تقولينه يرضي الله؟» فكان رد المقدمة: «أدخلتنا في موضوع آخر الاحتشام شكراً لك». فلو جمعنا مداخلات المقدمة والتقرير والتحقيق والاتصالات والتي تصب جميعها في منحى واحد لوجدنا أنها بحدود ٤٣٠ سطراً.

تتوجه المقدمة إلى الدغيدي بالقول: «أنتِ في قفص الاتهام». وتبدأ المحاكمة على الهواء: «ماذا فعلتِ بالسينما بالإخراج»؟ وتتحول إلى الشافعي بسؤال يبرر اختيار المحطة لاستضافتها بشيء من المِنَّة: «اخترناك عمداً لأنك شابة هل ترين أن الدغيدي نجحت فعلاً في التعبير بشكل واقعي وموضوعي عن هذه المشكلات وعن هذا الجيل؟» تنوِّه الناقدة بجرأة الدغيدي وتختلف معها بطريقة توظيف هذه الجرأة... ثم تتحول المقدمة إلى جبور بالسؤال: «هل نجحت المرأة في استخدام الدراما لخدمة قضايا المرأة.؟». تحاول جبور إثبات ذاتها مصوبة السؤال مُحتجَّة: «هذه قبلية. لماذا لا يكون السؤال عن استيفاء العمل الشروط الفنية والمنطقية» وهنا تحاول أن تفتح أفقاً للموضوع، لكن المقدمة سرعان ما تقفل الباب وبانزعاج قائلة: «طيب هذا رأيك».

وتعود لدغيدي باتهام آخر ملخصه أنها تستغل المرأة كسلعة لجذب الجمهور. ترد باستخفاف: «كل ده يقال». تجيبها المقدمة: «ليس جديداً عليك، الناقد يقوم بعمله عليك الدفاع» وتذكرها بالمشاهد الإباحية والمثيرة في أفلامها لا سيما «مذكرات مراهقة» ومشهد «المايو بارتي». من موقع المدافع تشرح المخرجة قصدها الدرامي. تواصل المقدمة هجومها غير مقتنعة...«غير صحيح وصلت الأمور إلى حد اللمس». وبدتا وكأنهما في جلسة عتاب فعلية. واحدة تنكر، محاولة إثبات ذاتها شارحة آليات العمل في الإخراج وشروطه الفنية، وأخرى تمطرها بالشواهد والخبريات مستمدة شرعية كلامها من السلطة الرمزية للمجموعة. ويبدو المشهد التلفزي أكثر إثارة عندما تُذكِّرها أنها طلبت من أحد الممثلين أشياء تعتذر للمشاهدين عن الدخول في تفاصيلها. هنا

تفعل التورية فعلها وتمارس الشاشة قصدها الدرامي من خلال التلميح. تلتقط الدغيدي أنفاسها شارحة أسلوبها في الإخراج، وعندما تقترب من إثبات ذاتها من خلال إظهار إبداعها الفردي المتجلي بالخروج عن الفيلم التقليدي، تأخذها المقدمة/المذيعة إلى ردود فعل الشارع الأردني والتي كان ملخصها أن أفلامها وإن كانت حلوة فإنها تسيء إلى عاداتنا ولا تليق بديننا الإسلامي الصحيح. وتتوجه إليها عقب التحقيق مستقوية بآراء الشارع منتشية: «هذه عينة من جمهورك السينمائي الذي أشرتِ إليه منذ قليل بالقول إنكِ متأكدة أنه سيفهمكِ». تبقى المخرجة على درجة من إثبات الذات متسلحة بمعرفتها بآليات العمل المتلفز وتتوجه باتهام مضاد إلى الجزيرة، كاشفة آلية عملهم: «بحثتم في الاستطلاع عن جمهور مؤيد لكم». ثم تعود وتحلل ما أتى بالاستطلاع منتقدة المجتمع العربي واصفة إياه أنه يعيش انفصاماً بالشخصية وأنه يميل لإخفاء أخطائه وعيوبه عن الآخرين. وهنا يحصل تقدم في الحوار إذ توافقها المقدمة على ما قالته بعض الشيء، وتستفيد الدغيدي من إقناعها لها وتكمل: «سنبقى طول عمرنا متأخرين طالما لم نعترف بعيوبنا»، محاولة فتح أفق جديد للموضوع مفاده عدم جدوى محاسبة مخرجة مثلها لديها رقابتها، إزاء المنظومة الاتصالية الجديدة واستحالة الرقابة عليها: «افتحي الدش وشوفي». لكن المقدمة تتجاوز موضوع الدش الذي هو مصدر خوف للمجتمعات المحافظة وتحاول أن تخيفها هي بالقول: «يبدو أن الأسرة لم تعد تُقبِل على أعمالكِ وربما هناك خطر على مستقبلكِ الفني وأن الآباء رفعوا عليك دعوى وأوشكتِ أن تجلدي ٨٠ مرة، طبعاً مع اعتذار على التفاصيل!» تصحح الدغيدي أن من رفع الدعوى ليس الآباء وتحاول أن تثبت ذاتها بالقول: «إن الفن لا يقاس بمعايير أخلاقية». تنفعل المقدمة وتخرج القول المضمر من عقاله لتقول: «أنا أرفض أن أعطي دروساً في الأخلاق لكن ببساطة أنت تعيشين في مجتمع يدين بالإسلام وله خصوصية». أيضاً الدغيدي في عملية إثبات للذات تُخرج كلامها من عقاله ويذهب الحوار نحو مزيد من الوضوح متحرراً من فعل النفي والإضمار والإنكار فتقول من موقع المدافع المهاجم: «أنا مسلمة مؤمنة والمجتمع الإسلامي منذ عشر سنوات لم يكن هكذا». تعيدها المقدمة إلى البداهة وإلى التكرار: «نحن نتكلم عن ثوابت وليس عن متغيرات» وتهددها أن الجمهور سيغضب عليها مرة أخرى وتأخذها نحو الاتصالات التي تطلب من الله لها الهداية وتذكِّرها بالنار المُعَدَّة خصيصاً للنساء. وتتحول المقدمة إلى ديانا جبور لتعيد معها السيناريو ذاته حول المخرجة انعام محمد علي. ومن ثم تعود من جديد إلى الدغيدي بأسلوب آخر علّها تقنعها بالانضواء تحت لواء الجماعة، إذ تضرب لها مثلاً من داخل المهنة عينها عن كمال الشيخ شيخ المخرجين، على حد قول المحطة، انه ربما يرى أنه يجب مراعاة الناس. هنا تُصرّ الدغيدي على إثبات ذاتها وتجيبها: «إنه أستاذي، هو

استسلم، أنا لا أريد، أنا لا أتغير مع التغير الذي ليس لصالح المجتمع، التطرف الديني ضد المجتمع ونحن لسنا ضد الدين». تعيدها المقدمة إلى البداهة بالقول: «هذه ثوابت القيم الدينية». وهنا تنفعل الدغيدي وتتوجه إليها شخصياً: «هذه ليست ثوابت انزلي البسي الحجاب وغطي عينيكِ»، وبهذا تدفعها للتفكير بموقعها الملتبس ضمن السلطة الرمزية للمجموعة. فلم يكن من المقدمة إلا أن أجابتها: «هذه مسألة خيار حر». تنهي المقدمة الحلقة بالحكم عليها قائلة: «ليس فقط المتطرفون هم الذين يعترضون على أفلامكِ إنما هناك أناس عاديون لديهم قيم يؤمنون بها ويخافون على أولادهم».

«ممارسة المرأة للسياسة بين التوريث والقدرات الذاتية»

المشاركات كُنَّ: حنان العشراوي (١٣٦س) قوطعت ٦ مرات وبنازير بوتو (١١٦ س) قوطعت مرتين وميرفت التلاوي (٦٦ س) قوطعت مرتين والمقدمة ليلى الشايب (٢٢٤ س).

حملت مقدمة الحلقة (٤٩ س) الأفكار التالية: للوصول إلى السلطة مرت المرأة عبر التاريخ بمجموعة من المؤسسات، كما استخدمت مجموعة من الحيل.. في العصر الحديث لعبت الأحزاب السياسية دوراً آخر في توريث السياسة لمجموعة من النساء. في عالمنا العربي الانتساب للأسرة الحاكمة يعد مدخلاً لممارسة السياسة كما تفعل السيدات الأوائل.

كرر التقرير (٥٩ س) ما ورد في المقدمة منتهياً بالتساؤل عن مدى استفادة نساء القاعدة بما تقوم به نساء القمة. وان مدخل الاستحقاقات الفردية المنتزَعة عن جدارة يعتبر الأكثر مصداقية (حنان العشراوي).

أورد متصل من الإمارات (١٢ س) الحديث: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» مردفاً: «المرأة بتكوينها الفطري الأنثوي لا تصلح للسياسة لأن هذه تستدعي السفر والاختلاط ومفتي السعودية بن باز أفتى بتحريم المرأة الدخول في السياسة». ردت المقدمة بخفر وبصيغة التساؤل: «تقصد الاختلاط حتى ولو كان يعني أهدافه سامية خدمة الشعب؟.. وصلت فكرتك...العلماء اختلفوا في تأويل الحديث ومسألة الاختلاط حولها كلام كثير». في حين أن رد بوتو كان: «ان الرسول سمح للرجال والنساء بالعمرة والحج»، أما التلاوي فإنها وجهت اللوم إلى المحطة بسماحها لهكذا كلام معتبرة ما قاله إهانة للإسلام. بالإجمال كانت ردود المشاركات في الحلقة على الاتصال النابع من مرجعية متشددة محاولة لإثبات الذات من داخل المرجعية نفسها.

تسأل المقدمة العشراوي: «لماذا الشعب يمنح صوته للمرأة عندما تحمل اسم شخصية معينة ويمتنع عندما تتقدم معتمدة على كفاءتها». تصحح العشراوي بالقول:

«لا يمكن التعميم، ذلك يحصل في المجتمعات العشائرية الذكورية الأبوية والتي تمارس التمييز ضد المرأة بشكل واضح تغلق جميع أبواب مصادر القوة والتمكين ضدها باستثناء الارتباط العشائري أو العائلي، لكن المشكلة هي أن المرأة ابنة الرجل الفلاني تبقى تحمل مزايا ذلك الاسم وربما لا ينظر إلى مزاياها الشخصية.» وهنا تفتح العشراوي أفقاً للموضوع تتلقفه المقدمة وتحيله إلى بوتو: «أيهما خدمها أكثر تكوينها الأكاديمي أم اسم ذو الفقار علي بوتو»؟ تجيبها بوتو متجاوزة الثنائيات التي تتميز بها أسئلة المحطة بالقول «مزيج من الاثنين»، شارحة: «ان اسم والدها أعطاها القدرة على دخول عالم السياسة، استطاعت قيادة الحزب ونالت ثقة الشعب الذي وقف إلى جانبها على الرغم من معارضة رجال الدين وأجهزة المخابرات لها». ثم تتوجه المقدمة إلى التلاوي بسؤال افتراضي: «لو فكَّرتِ بترشيح نفسك لرئاسة جمهورية مصر هل تعتقدين أن الشعب المصري بما فيه الرجال سيمنحك الثقة؟» تجيب التلاوي: «لا أعتقد أن الشعب ضد المرأة في مصر، لكن ما يسلط على الشعب من أفكار من اتهام الإسلام بأمور كثيرة ضد المرأة هو الذي يؤثر تأثيراً كبيراً على العامة خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار نسبة الأمية، والأحزاب السياسية لا تشجع على بناء كوادر نسائية..» وهنا تلتقي المقدمة مع بوتو مع التلاوي إلى أن موانع دخول المرأة في السياسة تكمن في العادات والأعراف وفي الفهم الخاطئ للدين.

تتساءل المقدمة مع بوتو لماذا حالات جنوب شرق آسيا لا مثيل لها في الدول العربية؟ تحيل بوتو السبب إلى القبلية والتقاليد التي ما زالت قوية في العالم العربي إلى جانب الفقر والأمية. تقاطعها بالقول: «الحال ليس أفضل في هذه المناطق». وهنا تدفعها باتجاه الوضوح أكثر في الكلام فتقول لها: «أنت محقة في ذلك لكن أعتقد أن في العالم العربي وفي البلدان التي فيها برلمانات، لو أن الأحزاب القوية ترشح نساء، في مصر مثلاً، بدلاً من ابن حسني مبارك يرشح الحزب الحاكم امرأة فإنها ستحظى بدعم حزب منظم وربما تنجح في الانتخاب وتصبح رئيسة.» وتتحول المقدمة إلى العشراوي التي تبدأ بالتساؤل: هل هناك حركة نسوية؟ تقاطعها بسؤال استفزازي: «الحكام العرب ليس لديهم بنات؟» يخرج كلام العشراوي عن دبلوماسيته: «الحكام العرب الآن أصبح عندهم جمهوريات وراثية إنما للذكور» وتعود للقول الأساس وهو هل هناك مؤسسات نسوية هل هناك وعي نسوي؟ مستنتجة أنه إذا كانت هناك حركة واعية وبرنامج عمل نسوي واضح تستطيع المراة أن تعمل ضمن مفهوم وعمل جماعي. تعود المقدمة وتسألها كيف استطاعت في ظل تعقيدات الوضع الفلسطيني أن تُوجد لها مكانة وتستمر فيها دون أي سند؟ تشرح العشراوي لها «ان العملية كانت تراكمية وأن هناك محاولات لتحييد المرأة خاصة إذا عملت كاستثناء وليس كقاعدة، استخدام المرأة الوحيدة في

تشكيلة الوزارة الأخيرة استُخدمت كرمز أو كمبرر لاستثناء الأخريات. أنا ناضلت سُجِنت وهذا شيء مقبول لدى المجتمع الفلسطيني لأنه مصدر للمصداقية، لكن عندما تهدأ الأمور وتكون قضية المناصب هي القضية الأساسية تصبح المنافسة ذكورية نسائية. لكن عندما انتُخِبت وإنصافاً للمجتمع الفلسطيني ظهر أنني انتُخِبت من رجال ونساء من كل الطوائف، وكان هناك نوع من التقييم الموضوعي للشخص والتجربة». تتحول المذيعة إلى بوتو: «عندما توليتِ رئاسة الوزراء هل أسندتِ حقائب وزارية للنساء أم ربما تصرفتِ كما يتصرف الرجال؟» تجيب: «أنا مذنبة جزئياً، أعطيت النساء والرجال مناصب لكن هناك مراكز قوى أردنا أن نأخذها بالحسبان والنساء ضعيفات في هذه المراكز» وتشرح بوتو أهمية تواجد النساء في هذه المراكز أولاً. وهنا كان يمكن أن يتقدم الحوار لكن المقدمة لم تتلقف هذه الفكرة المهمة وانتقلت إلى النقطة الأخيرة من باب إثبات الذات للمحطة إزاء المرجعية السياسية للأنظمة السائدة، بالعام ودون تسمية نظام بعينه، تسأل: «هل تعتقدين أن خوض غمار السياسة من جانب السيدات الأوائل يعكس في نهاية المطاف حتى ولو كان عملاً إيجابياً طبيعة الأنظمة السائدة التي تمنح إلى كل من يمت بصلة إلى الحاكم فرصة ممارسة السلطة بأي شكل من الأشكال؟» تعتبر التلاوي أن مشاركتهن دفعٌ للقضية مع تزايد النعرة السلفية، وبهذه الإجابة هناك من ناحية إثبات للذات أمام مرجعية التشدد، ومن ناحية ثانية توافق مع الأنظمة السياسية. تتحول إلى العشراوي معدِّلةً من سؤالها ربما لتحصل على إجابة شافية أكثر: «هل ترينه عملاً إيجابياً حتى ولو كانت هذه السيدة الأولى لا تشبه كثيراً المرأة العادية التي تقول إنها تُعبِّر عن همومها؟» تجيب العشراوي بإثبات ذات مزدوج تجاه المرجعية السلفية ومرجعية الأنظمة السياسية، ربما بما يتلاءم مع توجه المحطة بالقول: «تستطيع أن تؤثر عن طريق المثال أو عن طريق الانخراط في العمل الجماعي والعمل النسوي والتوجه تجاه تغيير هذه التقاليد والأفكار الموروثة أو السلفية البائدة، لكن تنصيب السيدة الأولى باعتبارها هي المرأة القيادية بالنسبة للعمل السياسي أو النسوي هذا خطأ، هي ربما قمم رمزية». تقاطعها المقدمة بسؤال يأخذ الكلام بالاتجاه الذي تريده المحطة: «ربما أضيف على كلامكِ ما يقوله البعض إن قمم الرجال تفشل عادة بينما تستمر قمم المرأة هل هو عمل سياسي نوع من الرفاهية أم ربما يدل على نية خالصة في خدمة المرأة من خلال نفوذ الزوج؟» اللافت هنا أن الكلام: ما يقوله البعض عن فشل قمم الرجال، الذي يسبق السؤال: هل هو رفاهية أم نية في خدمة المرأة، يحدد الجواب مسبقاً لصالح الشق الأول السلبي أي الرفاهية. تجيبها العشراوي: «هي منابر أكثر مما هي أماكن لصنع القرار أنا أفضل دائماً الانطلاق من القاعدة.» تتفق التلاوي معها وتذكر ما فعله بورقيبة وملك المغرب. وتنهي بوتو بقول يحمل دلالات

مضمرة من أنها تود رؤية البرلمانات في البلدان الإسلامية تناقش قضايا الطلاق ورعاية الطفل وحضانته وإعطاء المرأة حقوقها التي حرمتها منها مجتمعاتنا.

باختصار، هؤلاء النساء الفاعلات اللواتي أُتِيَ بهن ليستمعن إلى ما تم حسمه من قبل معدي البرنامج وقبل ولوجهن الحلقات لم يتمكن من البت بالموضوع أو على الأقل فتح آفاق له. والدليل على ذلك أنه أقفلت عليهن الأبواب، وأظهرت القيم الدينية والعادات الاجتماعية على أنها المرجعية التي تعود إليها وحدها الحكم على صلاحية الأعمال الإبداعية النسائية. والمفارقة أن النساء اللواتي مارسن السياسة واكتسبن شرعية ما، بعدما برّأن الإسلام من تهمة وقوفه عائقاً أمام عملهن، وجدن العائق يتمثل في الفهم الخاطئ للدين وفي العادات والتقاليد والنعرة السلفية.

ب – المرأة كموضوع

نظر البرنامج إلى المرأة كموضوع سلبي غير فاعل مُعرَّض للاستغلال، الناتج عن التقدم وعن العولمة وعن مظاهر الحياة الحديثة، من قبل الرجال والشركات الكبرى. في حين أنهن كُنَّ في ظلال الإسلام مُحصَّنات معززات مُكرَمات. وهذا ما سنتبينه في الحلقتين التاليتين:

«استغلال الرجل لأموال زوجته»

المشاركات في الحلقة: فريدة النقاش رئيسة ملتقى الهيئات لتنمية المرأة في مصر، غير محجبة، (٨٨ س) قوطعت ٣ مرات– هالة العاهد من الأردن المستشارة القانونية في المعهد الدولي لتضامن النساء، محامية، محجبة، (١٦٠ س) قوطعت مرتين– رجاء مكي من لبنان، أستاذة علم الاجتماع، غير محجبة، (٩٦ س) قوطعت ٥ مرات. المقدمة لونا الشبل (٢٤٥ س).

استُهلت الحلقة (٣٢ س) بالقول: «مع ارتفاع نسبة العاملات في الوطن العربي كَثُرَ الجدل حول مسألة الذمة المالية للمرأة واستقلاليتها، في ظل تفاقم الخلافات الزوجية الناجمة في أغلبها عن تسلط الرجل على أموال زوجته أصبح من الضروري طرح هذه المسألة...»

أخذ التقرير من القاهرة (٣٨ س) آراءً ملخصها ما يلي: «سوء الأحوال الاقتصادية دفع بالمرأة للخروج للعمل وهناك من يرى مشاركتها أمراً طبيعياً وضرورياً وواجباً تفرضه الظروف المادية، في حين ترى أخريات أن من حقهن الاحتفاظ برواتبهن. الإسلام حسم الأمر، لها مطلق الحرية، ذمتها المالية مستقلة..» تضمنت الحلقة كذلك تحقيقاً من الشارع الأردني (٢٩ س) لمعرفة ما إذا كان إنفاق الزوجة من مالها على بيتها واجباً تجاه الأسرة أم استغلالاً من قبل الزوج.

ورد إلى الحلقة ٥ اتصالات من الرجال (٣٦ س). اعتبر فارس من السعودية أنه تبعاً للحكم الشرعي يجب أن يأخذ كل ماله على حده...المرأة التي تخرج إلى العمل واجبها أن تعوض عن غيابها. أجابت المقدمة مستوضحة بحذر: هل هي ضريبة تدفعها لأنها خرجت؟ رأى عبدالله من أبو ظبي «المرأة غير مكلفة بالإنفاق والعمل... إذا خرجت يجب أن تخرج برضا زوجها وتكمل النقص بالإنفاق». أجابت المقدمة وكأنها تحاول ألا تتحمل عبء الترويج لعمل المرأة دون إذن الزوج بالقول: «نحن لا نتحدث عن عمل المرأة نحن نتحدث بعدما عملت برضا الزوج». عامر من سوريا قال «إن خدمة الزوجة واجبة على الرجل وكل ما تفعله بالمنزل تبرعاً». أما أشرف من مصر فإنه رأى أن خروج المرأة إلى العمل وإنفاقها على المنزل يحصل بناء على اتفاق. أما النساء فكانت اتصالاتهن من لبنان لعرض حالات استغلال الأزواج لهن.

ضخمت المقدمة من خلال أسلئتها مسألة استغلال الرجل لأموال زوجته محاولة التسليم مسبقاً أنها ظاهرة ناتجة عن خروج المرأة للعمل، مستخدمة كلمات بصيغ المبالغة: إجبار – إذلال – رغم أنفها، لتبين أن من يقومون بذلك تعد أعمالهم مخالفة للشرع وأنه وإن كانت مسألة إنفاق المرأة أمر مسلَّم به في الغرب فإن الإسلام حسم الأمر، لها مطلق الحرية ذمتها المالية مستقلة. إنها الدلالة التي لا تفصح عن نفسها لكنها تفصح فقط عن علاقتها بالدلالات الأخرى. مثلاً تسأل النقاش: «...هل تعتقدين أن الرجل بعدما قبل فكرة عمل المرأة بدأ يستغل منتوجها أم أن هذا الأمر نادر الحدوث ولا يشكل ظاهرة؟» النقاش في محاولة لإثبات الذات لا توافقها على سؤالها فهي تعتبر أن نضال المرأة أخرجها إلى العمل وليس قبول الرجل، ولا تظن أنها ظاهرة وترى أن مشاركة المرأة شيء طبيعي في حال كانت تريد أن تبني أسرة سعيدة. وتحاول أن تفتح أفقاً للموضوع فتشير إلى أن فكرة الاستغلال يمكن أن تكون قائمة لأننا نعيش في مجتمع يحكمه الاستبداد القائم على الأبوية. لكن المقدمة تقفز عن هذه النقطة وتعود لتسأل العاهد: «ظاهرة أم لا»؟ تتناغم العاهد مع المحطة منذ بداية الحلقة بما يتلاءم مع المرجعية، وتقول: «إنها حالات موجودة تستحق النقاش وإن الظاهرة هي مساعدة السيدات لأزواجهن بسبب الوضع الصعب..طوعاً». هنا تتفاجأ المقدمة فتقاطعها وتعيدها إلى افتراض المحطة: «عندما يتحول الزوج إلى مُطالِب بهذا الراتب وأحياناً عنيف، ما رأيكِ»؟ تجيب العاهد «نحن مع التفاهم.. لكن الإسلام والقانون أعطى للمرأة ذمة مالية مستقلة ويجب ألا يكون هناك جبر من قبل الزوج لأخذ الراتب، هذا يتنافى مع المروءة والدين والتشريعات». الملاحظ أن العاهد تساعد المقدمة/المذيعة على تبرير طرحها للموضوع إنما تصوب لها طريقتها في الطرح الذي فضلته أن يكون متدرجاً وليس على طريقة المحطة التسليم بالأمر وحسمه منذ البداية. وعندما تعود النقاش للكلام عن

المشاركة والتراضي تُعقِّب المقدمة على كلامها بالقول: «إنكِ متفائلة». تتوجه المذيعة إلى مكي بسؤال يُسلِّم بالإجابة مسبقاً مستدعياً التواطؤ حاملاً مِنَّة الاختيار، نظراً لما يحمله من صيغ تأكيدية ومن تكرار يستدعي البداهة:

«د. رجاء وأنت كأستاذة في علم الاجتماع ونحن نتحدث عن إجبار المرأة على دفع راتبها لزوجها، بشكل من الأشكال استغلال الزوج لراتب المرأة، ما هي الانعكاسات الاجتماعيةلاستيلاء الزوج على إنتاج وراتب زوجته وأنت الأستاذة في علم الاجتماع؟» تجيب مكي: «ان التعاطي مع المراة بأنها إنسان ناقص ما زالت في كل البلدان العربية رغم كل التطورات.. أقول إنها تتحول إلى ظاهرة، أنتقل إلى أرقام سريعة في دراسة أجريناها ٧٥ ٪ يتعرضن لاستغلال الرجل وهن متفوقات عليه علمياً». تتلقف المقدمة النسبة وتجد فيها فرصة مناسبة للمسرحة وتبني عليها دون السؤال عن العينة وتسأل هل هذا السبب قد يكون هو الحافز للرجل كي يتصرف بهذه العدوانية؟ هنا تحاول مكي أن تثبت الذات البحثية تجاه المرجعية الدينية بالتلميح قائلة: «المرأة غير مغطاة بأرضية قانونية، نحن في مجتمع ما زالت السلطة للرجل مباشرة، الرجل هو القوَّام». تُخرج النقاش الكلام من العنف داخل الأسرة إلى عنف المجتمع قائلة: المراة تتقاضى أجراً أقل من الرجل، فاتحة أفقاً للموضوع. لكن المقدمة تقفل هذا الباب وتعود إلى الأسرة بسؤال يحمل مجموعة دلالات مضمرة: «لماذا تريد المرأة مساواة الرجل بالعمل والخروج من المنزل ومضاهاته بالأماكن التي قد يعمل بها ولا تريد الإنفاق مثلها مثله؟» ترد النقاش: «من قال إنها لا تريد الإنفاق؟ هناك ٣١٪ من الأسر في مصر تعولها نساء.» تصر الشبل على تبرير موضوع الحلقة نحن نتحدث عن المرأة التي تُجبَر على الإنفاق. تتدخل العاهد ليتقدم النقاش وتفتح أفقاً للموضوع في محاولة منها لإثبات الذات لمرجعية أقل تشدداً إزاء مرجعية متشددة وتقول ما ملخصه: «ليس هناك من تقدير للعمل المنزلي على أساس أنه عمل، إضافة إلى أن المرأة تعمل في الداخل والخارج بينما الرجل ملزم في العمل في الخارج فقط». تستوضح المقدمة: «وما المطلوب من الرجل مثلاً يساعد المرأة؟» تحاول العاهد كعادتها أن تتدرج في الإجابة تقول: «يكفي أن يكون هناك تقدير أولاً». تدخل النقاش وتُكمِل: «أن يتقاسم العمل معها» تردد العاهد وراءها: «نعم أن يتقاسم العمل معها»..النقاش تتوج إثبات الذات وتُحدِّد «في المنزل». وهنا تستبق المقدمة الاعتراضات المحتملة حول الخطاب الصادر عن المحطة وتتنصل من مسؤولية القول أمام المرجعية مبدية استغراباً متلعثماً «مثلاً يعني هل يمكن مثلاً أن يغسل هل هناك رجال؟؟» النقاش: «لِمَ لا، هذا ليس شيئاً مهيناً؟» المقدمة: «يعني أنه عرضة للنقد». بين الخوف من التورط والتنصل، تنقذ العاهد المحجبة المقدمة غير المحجبة، من خلال تبرير تساؤلاتها بالقول: «أنا أعرف أنه مثلاً لما تطرحي

حضرتكِ هذه القضايا التي هي تساؤلات الناس». تقاطعها الشبل: «نعم تساؤلات الناس». لكن العاهد تمسك بزمام الأمر وتكمل: «لكن أحياناً هذا بيكون كتير تبسيط للواقع ورد للإسكات. يعني ما هو المانع؟» وتصل إلى ذروة إثبات الذات من داخل المرجعية، فتفتح أفقاً للموضوع وتتكلم حول وجوب أن يكون هناك معاملة تفضيلية للنساء تقرها التشريعات الدولية والشرع أساساً. بعد هذا التقدم النسبي في الحوار تأخذنا لمعرفة رأي الشارع الأردني. ومنه تنفذ إلى الناحية الشرعية والتأكيد على الذمة المالية المستقلة ومناقشة ما إذا كان الإنفاق يسقط القوامة أم لا. وفي موضوع حساس كالقوامة تعود العاهد إلى المرجعية الأصل وإلى الإجماع بالقول: «لأ القوامة مالية...على الرجل أن ينفق. إذا كان هناك عسر ما الحل؟ يحق للمرأة أن تصرف لكن يُعتبر دَين في ذمته وليس أجر.» تسأل النقاش: «في حالة العسر هل يحق للزوجة أن تمتنع عن الإنفاق؟» تجيب النقاش: «انها لا بد أن تساهم فالأسرة كيان قائم على المحبة وليس تجارياً» وتتحول إلى تفسير العنف الاقتصادي الناتج عن الفقر الشائع في البلاد العربية. لكن المقدمة تعيد الموضوع إلى الأسرة وتسأل: «؟إذا ما كان الفقر يبرر ضرب الزوجة؟» تحيلها النقاش إلى الثقافة التي كونت مفهوماً مشوهاً للرجولة. لكنها تقفل الموضوع متوجهة إلى مكي التي ترى أن العنف ليس ناجماً فقط عن الفقر إنما عن وضعية المرأة والرجل في المجتمع وغياب الأرضية التشريعية (لا ندري ماذا كانت تعني بغياب الأرضية التشريعية هل هو إخفاء لما تريد أن تقوله حول قوانين الأحوال الشخصية)؟ ربما هو التنصل من مسؤولية القول مع دفع المخاطَب لاستنتاجها. بعدها تأخذنا لسماع حالات المستغَلات، ومن ثم تتدخل العاهد لتصل إلى أعلى قصد درامي بالقول: «ما بالكِ برجل لا يعمل ويجبر زوجته على العمل بالدعارة للإنفاق على البيت أليس هذا عنفاً؟» هنا المقدمة تحاول أن تؤكد ما تتظاهر بالتشكيك به إذ تقول للعاهد: «هل هذا موجود أم هي قيل عن قال؟» تُعقِّب مكي محاولة مغازلة توجه البرنامج بالقول: «نحن بحاجة لإعادة إنتاج مفاهيم جديدة دون أن نخرج عن الشرع». وتنهي المقدمة الحلقة بطريقة غير ذكية تشي بالمخطط إذ تقول: «نحن عرضنا مشكلة استيلاء الرجل على أموال زوجته من باب كونها ظاهرة نتمنى ألا تكون قد عُمِّمَت وتكون عارضة وهامشية والحب دائماً أساس الحياة الزوجية». وكأني بها تريد أن تقول: لا تصدقوا هذه الظاهرة كانت من صنعنا ضخمناها كي نحسن إحباطها!

«استغلال المرأة في الترفيه السياحي»

مقدمة الحلقة ليلى الشايب (٢٠٦ س). المشاركات: حياة الحويك صحفية في صحيفة الدستور الأردنية غير محجبة، (٢٣٢ س) قوطعت ٣ مرات، قاطعت غيرها ٤

مرات. هدى رزق أستاذة علم الاجتماع الجامعة اللبنانية، غير محجبة، (١٤٢ س) قوطعت ٣ مرات. عزة كريم المركز القومي للبحوث الاجتماعية مصر، محجبة «مودرن» (١٠٨ س) قوطعت مرة واحدة.

كان ملخص ما أتى به التقديم للحلقة (٤٠ س): انه رغم المؤهلات السياحية للدول العربية فإن تجارة الرقيق تصاعدت مؤخراً، والتساؤل يدور حول الشبكات التي أنعشت هذا الدور من التجارة ومواقف الدولة وأجهزة الرقابة في مكافحة هذه الظاهرة.

الملاحظ في هذه الحلقة غياب الكاميرا كلياً عن الموضوع. يدين مفيد من السعودية (١٣ س) الذين يذهبون إلى سياحة المنكر. يستنكر المتصل الثاني(١٩ س) موقف رزق مستغرباً كونها عالمة اجتماع تبرر استخدام الجنس في الترفيه السياحي بالنفعية وهي تعرف آثار هذا العمل على كرامة المرأة، ثم يوضح كيف تُجلَب النساء من خارج المنطقة العربية إلى الفنادق التي أصحابها يُعَدّون من النافذين السياسيين يهدمون منظومة القيم من أجل المال. تعتبر المقدمة إلزاماً أنه طرح قضية هامة ما هو قسري وما هو طوعي في ممارسة هذا النوع من النشاط، لتنفذ إلى الموضوع الذي تريد طرحه وتُحوِّر الانتباه عما أتى به، واعدة رزق أنها ستترك لها حق الرد عندما يأتي دورها في الكلام. سألت المتصلة من السعودية (١٢ س) رزق إن كانت تشجع هذا النوع من السياحة وتأسف للمناظر التي رأتها في لبنان من شراب ورقص وعري ونساء... وتستوضح المقدمة استيضاح العارف: «هل تتحدثين عن مظاهر سلوك اجتماعي أم داخل الفنادق؟» تحاول رزق أن تحسم الموضوع بالقول: «ملاهي ليلية». لكن المتصلة تؤكد أنها مطاعم عادية تعطي مثلاً: يأتي رجل ومعه أربع بنات وأنها خافت على أخيها الذي عمره ١٦ عاماً من هذا المنظر. لخص هذا الاتصال اتهام المحطة للبنان بممارسة هذا النوع من السياحة وذلك باللعب على ثنائية المذنب والبريء. تقول المتصلة من المغرب (١٢ س): إن الدعارة سابقاً كانت مقصورة على فئة معينة من النساء لكن المشكلة اليوم كل...تقاطعها المقدمة قائلة بصيغة استباقية: أحاول أن أترجم ما تقولين: المرأة في المغرب العربي...الدعارة نوع من النشاط التجاري... تتابع المتصلة، بعدما استبقتها المقدمة لتحديد المكان خوفاً أن يُفهَم أن قصد المتصلة مكان آخر، على اعتبار أن هناك أمكنة مسلم بطهريتها وأخرى معروف عنها نجاستها، وتقول: «في السابق تموت المرأة العربية ولا تأكل من ثدييها. لكن اليوم نرى مستواها لا بأس به وتشتغل بالدعارة.» وهنا يقوم الاتصال بدوره بالإطراء على الماضي وبتحميل الحاضر عبء الاستغلال والنهم المالي والجنسي. تنفذ المقدمة من الاتصال إلى طرح السؤال المُعَدّ لها مسبقاً والذي يدور حول الدعارة القسرية والطوعية.

تستهل المقدمة الحلقة بسؤال حويك عن السياحة الجنسية كعامل جذب. تذهب حويك في اتجاه تحديد مسار الحلقة منذ البداية فتحسم الموضوع، وعلى درجة عالية من إثبات الذات اعتماداً على مرجعية البحث في الموضوع من مقاربة قيمية أخلاقية وتقول: «مجرد ربط السياحة بالدخل الاقتصادي يجعل منها سلعة». تنفذ المقدمة من هذا القول الذي يتلاءم مع رؤية البرنامج ويعزز الإجماع وتتوجه إلى رزق لتسألها عن لبنان وعما إذا كانت الحروب غيرت من وجهه السياحي بطريقة تحمل ضمناً اتهاماً إلى لبنان (محاولة تدارك ما خسر أثناء الحرب في الكسب السريع مما يبيح استغلال كل شيء). ترد رزق من موقع المدافع بطريقة مفككة فيها محاولة لإثبات الذات تجاه المرجعية الاخلاقية القيمية انطلاقاً من مرجعية قائمة على قراءة الواقع الاقتصادي في ظل العولمة وما تسوده من عمليات عرض وطلب ومنافسة، محاولة فتح أفق للموضوع. تقاطعها حويك، محاولةً إعادة الموضوع إلى حيث انطلقت هي منه، بالقول: «المنافسة على ماذا على كسب السائح براقصة شرقية؟» تحاول رزق أن تشرح من زاوية اقتصادية، ترفض حويك هذا الطرح بشكل مطلق مستندة إلى المرجعية القيمية: «كل شيء يصير عرضة للبيع والشراء وساعتها نبيع المرأة». تتوجه المقدمة إلى كريم لتسألها عن لجوء بعض الدول الغنية إلى السياحة الجنسية، إنما دون تسمية أي دولة كما فعلت مع لبنان (وهنا ربما تقصد دبي). تحاول كريم أن تفتح أفقاً للموضوع شارحة أن السياحة دخلت كعنصر اقتصادي تنموي مجال المنافسة وكيف أدخلوا فيها المرأة استسهالاً. تدخل حويك على الخط غامزة من قناة رزق: «أنا لا أعرف أخذ الأشياء في ظواهرها وما هي عليه في أرض الواقع وإلا قبلت الاحتلال. أين القيمة الإنسانية في امرأة أستغلها كسلعة؟ تسهب في الكلام بمهارة رابطة الأخلاقي بالإنساني بالوطني مما يجعلها بموقع قوة، تقاطعها المقدمة لتسألها عما هو طوعي وقسري عندما تقولين: تُجبَر المرأة؟ توضح بطلاقة: «ما هو طوعي فيه تحطيم للقيمة هو أساساً في ثقافة تربوية اجتماعية نربي المرأة على اعتبار نفسها كسلعة، نربي فيها الاستعداد لقبول أن تكون سلعة». وهنا تفتح أفقاً جديداً للموضوع توقفها المقدمة لموجز الأخبار. بعده تقفز المقدمة عما قالته حويك حول التربية وتكرر سؤالها حول الدول الغنية التي تشجع هذا النوع من السياحة. وهنا حويك، في عملية إثبات للذات تجاه مرجعية الأنظمة السياسة العربية طبعاً دون تسمية أحد، تستند إلى رواية كونديرا (خفة الكائن التي لا تحتمل) وتعطي مثالاً: «ذاك الشاب المندفع الذي يُقمَع أثناء ربيع براغ فيتحول إلى شاب يفقد إحساسه بالكرامة بالحرية بالقدرة على التغيير إلى رجل يقتله الإحباط ويعيش متنقلاً من امرأة إلى أخرى.» وتشرح كيف «أن هذا الشاب الذي حُرِمَ من إحساسه بالرجولة بالمعنى العميق للكلمة وليس الذكورة بالمعنى الجنسي، الرجل بما

معناه دوره في صياغة مجتمعه حاول أن يحقق رجولته عبر افتراس النساء». وتفتح أفقاً للموضوع، رابطة السياسة بالجنس، متسائلة: «ألا ينطبق على كل واحد منا في العالم العربي (رجالاً ونساءً)؟ حالة الإحباط والتكسير والفراغ بماذا يُملأ؟ بكل ما هنالك من توافه ومتع...» غير أنها هي نفسها تقفل على الموضوع لتفتح آخر حول مسألة منع البغاء في السويد بموجب تشريعي متمثل بأن القيمة الإنسانية لا يجوز أن تخضع للبيع والشراء، وتبقى سيدة الكلام، تحاول رزق جاهدة التدخل لتوضح أن البغاء دخل الحيز الاقتصادي وتعطي أمثلة من دول أوروبية. تقاطعها بحزم وتكرار يشبه البداهة بالقول: «أنا لا أستوعب منطق الاقتصاد لأنه إذا جرَّدنا المسألة من القيم يصبح كل شيء مسموح». تتجاوب المقدمة معها متجاوزة البعد الاقتصادي وتذهب نحو الاتصالات لتفعل الإدانة فعلها من منطلق قيمي غير عابئ بالواقع ولا بالظروف. ثم تتحول إلى القاهرة وتسأل كريم عن الدعارة المُقَنَّعة. تتجاوز كريم الكلام عن العصابات التي تمارس استغلال الفتيات إلى الكلام عن الزواج العرفي وزواج المسيار. تتجاوز المقدمة بدورها الموضوع وتذهب إلى الاتصالات. وتتحول إلى رزق وتحمل إليها السؤال المُصرَّة على طرحه منذ بداية الحلقة والذي يحمل ثنائية، سمة معظم الأسئلة التي تطرحها المحطة، (طوعية أم قسرية؟- تختار أم تساق؟). رزق مهمومة بالرد على الاتصالات ومن موقع المدافع تتكئ على مرجعية القيم والأمومة والمنهج العلمي لترد: «أنا لا أبرر، أنا أُشخِّص. أنا عندي قيم طبعاً كأم وكأمراة...» ثم تخطو خطوة إلى الأمام بما يشبه محاربة الخصم بسلاحه وتضع المسؤولية على الترويج الإعلامي للبغاء على التلفزيون وتذكر إعلاناً يتضمن مشهداً لفتاة تلبس مايو نازلة إلى البحر ويترافق مع كلام يقول: «تمتع بالبلد الفلاني». وهنا بدت أشبه بمن يأتي بالدب إلى زرعه. فسرعان ما تذكرها حويك: « ان ذلك حصل في لبنان» تجيب رزق: «هذا لا يعني أنه ليس لدينا مآخذ على الإعلانات»، ثم تنتقل إلى العولمة التي غَيَّرت نظام القيم حيث طغى الهم المادي، مستنتجة أن الدعارة قبل العولمة كانت أكثر قسرية. تنفعل حويك فتأخذ الكلام وترد على رزق وعلى كريم: «يريدون جعل البلدان العربية هونغ كونغ مجردة من الأهلية والتاريخ»، وتُعرِّج على دور إسرائيل كيف تعمل على إشاعة جو يناسبها في المنطقة. وهنا تفتح أفقاً للموضوع يقفل على كل ما قيل ويرمي بالتبعة على الآخرين. تتلقف المقدمة الفكرة وتحملها إلى كريم وتسألها عن الشركات التي تُهرِّب النساء. كريم تتهرب من التسميات فتتكلم في العام معتبرة وجود هذه الشركات تحطيم للقيم وهي بمثابة سياسة خارجية داخلة علينا. تعود إلى حويك التي تعرف مسبقاً أنها تريد أن تقول شيئاً ما، وتسألها عن الدول وأجهزة الرقابة. تقول حويك إن لديها معلومات (استناداً إلى كونها صحافية): «سمعت من جهات في البنك الدولي أن هناك دراسة عن

دور المافيات اليهودية في تسويق شبكات البغاء في بيروت»، وتتكلم عن الخطر الأمني: «نقل أمراض، توريط شخصيات معروفة دون علمها». هنا يصل القصد الدرامي إلى أوجه، تنتقل إلى أفق آخر حول الفضائيات وما تروجه. تأخذ الحويك المبادرة وتتحدث عن التلوث البصري، وتتساءل: «كم صورة لموقع سياحي أثري بثت هذه الفضائيات؟» وبتواطؤ مضمر بينها وبين المقدمة وبعملية استدلالية تُذكِّرها المقدمة بالمتصلة من السعودية الخائفة على أخيها من أجواء لبنان.

بالإجمال حاول البرنامج تضخيم موضوع استغلال النساء من قبل الشركات والإعلانات والرجال ممن استبطنوا القيم الحداثية وقبلوا بخروج المرأة إلى العمل، للإيحاء للمشاهدين أن التقدم ليس خطياً وأنه ليس بالضرورة أن تصب القيم الحداثية دائماً في مصلحة المرأة. لذلك كان هاجس تسليط الضوء على أهمية العودة إلى مرجعية القيم الدينية والموروثات الاجتماعية واضحاً، وإلا اختراق مجتمعاتنا عبر النساء سيكون سهلاً وسريعاً وعبر تسميات مختلفة.

ج- المرأة كفاعل ومفعول في عالم متغير/ الأحداث الراهنة /العولمة

شكلت المتغيرات التي شهدها العالم في الربع الأخير من القرن العشرين مفصلاً أساسياً وهاجساً يؤرِّق المجتمعات المحافظة، لاسيما بعد اهتزاز نقاط الارتكاز وضياع معالم الزمان والمكان وسرعة الإيقاع المتمثلة بالفضاء المفتوح وتقنيات الاتصال. وجاءت أحداث ١١ أيلول وما تبعها ليزيد القلق قلقاً مضاعفاً ممتزجاً بالارتباك وبالشعور بالاستهداف وبالتالي الشعور بالحاجة لإعادة الاصطفاف. وبدا ذلك من خلال تخصيص جملة حلقات لمعالجة هذه الظواهر والأحداث. وهذا ما سنراه من خلال النموذجين التاليين:

«المراة والعمل الدبلوماسي»

مقدمة الحلقة ليلى الشايب (٢٤٣س). المشاركات كُنَّ: سفيرة تونس في لبنان نزيهة الزروق غير محجبة، (١١٧س) قوطعت ٧ مرات. مي أبو الذهب مساعدة وزير الخارجية المصرية، غير محجبة، (٧٧ س) لم تُقاطَع. د. بثينة شعبان ناطقة باسم وزارة الخارجية السورية غير محجبة، (١٢٤س) قوطعت مرة واحدة.

تضمَّن التقديم للحلقة (٤٤ س) الأفكار التالية: ارتبطت المرأة العربية بالدبلوماسية كشيء تجميلي... وحمل تساؤلات حول: هل تعيين بعض الدول العربية سفيرات لها جاء نتيجة استحقاقات مهنية نقلت المرأة من الديكور إلى قلب الفعل أم أن عوامل خارجية دفعت إلى استخدام المرأة كرهان سياسي دولي؟ ماذا عن تعيين أمريكا أربع سفيرات

لها في الدول العربية أدرن أزمات ما بعد ١١ أيلول؟ وماذا عن الفجوة بين تعيين سفيرات عرب وتغييب المراة في مجالات السياسة في الداخل؟

ردد التقرير (٣٧ س) الأفكار الواردة في المقدمة واختتم بالقول: آن الآوان لنعمل وفق مبدأ المنصب للأكفأ والأكفأ ليس رجلاً دائماً. ويليه تقرير آخر عن المعهد الدبلوماسي الأردني (٣٤ س) منتهياً بالقول: «رغم ازدياد النساء في هذا المجال، اقتحام المراة لا يزال بحاجة لدفعة سياسية اجتماعية تعزز من مستقبل المرأة سياسياً.» ثم لقاء مع مشيرة الخطاب أول سفيرة لمصر (٢٣س)، ملخص ما أتت به «نحن فرضنا أنفسنا. كانوا يقولون لنا ما في بنات تسافر».

تتوجه مقدمة الحلقة إلى زروق بسؤال يحمل الثنائية المعهودة والإجابة بداخله: «... تعيين سفيرات أتى نتيجة استحقاقات مهنية أم ضغوط دولية... وبالتالي الأمر لا يعدو كونه رهان سياسي والمرأة هنا ليست سوى ديكور سياسي؟»

تتوقف السفيرة عند كلمة «ديكور سياسي» لشدة ما تكررت وكأنها أمر بديهي، وتفصل بين زوجة السفير والسفيرة، وتشرح أن اختيار السفير أمر مختلف، على علاقة بصورة البلد ومصلحته. تصر المقدمة على سؤالها وترجعها إليه بأسلوب آخر: «ما الذي حصل حتى تصبح عقيلة السفير سفيرة» رزوق توضح والمقدمة تُصرّ على إيضاح قصدها بصيغة ثالثة: «كيف كان يُكتفى بدورها التجميلي ثم أُنيطت بها مسؤوليات؟» رزوق تنفعل: «أرفض كلمة تجميلي...دور زوجة السفير مهم، اختيار السفير أمر مختلف». تتحول المقدمة إلى القاهرة سائلة أبو الذهب بشكل إلزامي السؤال عينه. تؤكد أبو الذهب إلزاماً أن وصولها أتى نتاج تطور طبيعي وترفض فكرة الاستجابة لضغوط خارجية: «ان الاختيار يتم على أساس الكفاءة المطلقة». يبدو أن الإلزام يستدعي مثيله. تسوق المقدمة إلى شعبان إحصاءات عن نسبة مشاركة المرأة في الدبلوماسية السورية ١١٪ عام ٩٩ سائلة: «هل يعني ذلك أن الأمر ليس جديداً عليكم تماماً؟» تؤكد شعبان مشاركة المرأة في الدبلوماسية السورية منذ الاستقلال، وترفض بشكل إطلاقي تعميمي الضغوط الخارجية وفكرة الرهان السياسي والديكور لأن ذلك، على حد قولها، نابع من معرفتها بتاريخ المرأة العربية والمسلمة الحاضرة في جميع المجالات وجميع القرون. وبذلك تقفل على الموضوع. تتحول المقدمة لتسأل رزوق عن أسباب تغييب المرأة في العمل السياسي الداخلي وتعطي مثالاً الكويت، «المرأة لا تَنتخِب ويرسلونها إلى الخارج؟» رزوق تبعاً للمرجعية الدبلوماسية التي تنتمي إليها تتهرب من الذهاب في الاتجاه الذي تريده المحطة تقفل على الموضوع المطروح على طريقة المحطة، وتفتحه على طريقتها بدبلوماسية قائلة: «لا أحب الدخول في تفاصيل بأي دولة، لكن في المطلق الأمر يأتي نتيجة تطور منطقي للأوضاع...ارتقاء

المرأة إلى مراكز صنع القرار من شروطه أن ترتقي إلى الحق الكامل للمواطنة»..... تتلقف المقدمة فكرة «المواطنة» وتعيد صياغة سؤالها حول الكويت: « إذا كانت المرأة أثبتت نفسها في المجالات الدبلوماسية الصعبة لماذا تبقى داخلياً محرومة ولا تتمتع بالمواطنة بأدنى شروطها»؟ تحاول زروق أن تتهرب من الإجابة بالقول: «ليس موضوعنا اليوم لأنه يرجع إلى إرادة الشعوب وأولويات الدول». تبدي المقدمة انزعاجها وتجيب بنفسها غامزة من قناة الجماعات الدينية المتشددة إزاء المرأة: «ما لم يستطع المسؤولون في الداخل، ربما بسبب عقلية المجتمع أو رفض جهات معينة، سعوا إلى تحقيقه في الخارج من أجل إثبات لهؤلاء.. هذه المرأة التي لا تريدونها ها هي تمثلكم بأحسن صورة ممكنة». هنا ترتاح زروق لأن الكلام أتى على غير لسانها، وتقوم بعملية إثبات للذات بطريقة تُنبِّه فيها المتشددين إلى ضرورة التعامل مع المعطيات الجديدة (المرأة ارتقت إلى المستويات العلمية العالية) بتوفير التشريع القانوني، والدليل على ذلك «ان هناك مؤشرات إيجابية جداً في هذا الاتجاه من السعودية والكويت وقطر.»

تتحول المقدمة إلى أبو الذهب مرددة مقولة «ديكور سياسي»، ترجوها أبو الذهب الابتعاد عن كلمة ديكور وتوضح لها الفرق بين العمل السياسي في الداخل والخارج، تقاطعها المقدمة متوجهه إلى شعبان بسؤال مطول عن دلالات تعيين أمريكا لأربع سفيرات في الدول العربية بعد ١١ أيلول. تعتبر شعبان «أن هناك مشكلة بالنسبة لصورة المرأة العربية والمسلمة بعد ١١ أيلول والتي لا تعبر عن واقعها»، وتسهب في الشرح أنها لا تعتقد أن نسبة النساء في الخارجية الأمريكية تفوق نسبتها في الخارجية السورية أو المصرية الخ هناك بلدان عربية لها خصوصية... تقاطعها المقدمة لتبرر لها سؤالها، محددة البلدان من المغرب والجزائر والإمارات وقطر بعد ١١ أيلول. تجيبها شعبان: «أنا أفهم نقطتكِ وهي جديرة بالنقاش»، وتكرر «ان تعيين سفيرات وإن كان شأناً أمريكياً إلا أنه قد يكون ناتجاً عن هذه المشكلة بين صورة المرأة العربية في الغرب وواقعها، أو ربما هناك الكثير الذين يعتقدون أن وجود سفيرة غربية في بلد عربي سوف يشجع المرأة العربية والبلدان العربية على تعيين النساء في مواقع»، وتردف مُعلِّقة على هذه الاحتمالات التي أوردتها وبشكل لا يخلو من التعميم ومن تدعيم الاندماج الجمعي استناداً إلى تمجيد الذات، «انها ترى أن نسبة المرأة في مواقع القرار الأوروبية والأمريكية لا تزيد على نسبة المرأة في معظم البلدان العربية...مشكلة المرأة الحقيقية في العالم كله متقاربة إذا ما استثنينا البلدان الاسكندنافية»... تكرر المقدمة: «ذكرتِ سيدة بثينة أنه ربما من أحد الأسباب إعطاء المثال يعني تشجيع ربما الدول العربية أيضاً على تعيين سفيرات لها وحتى تعيين وزيرات لِمَ لا؟ إذ يمكن أن يكون ذلك كمدخل للإصلاح».

تحاول شعبان إثبات ذاتها الوطنية إزاء ذات المحطة لتثبت أن الإصلاح قائم في بلدان عربية عديدة قبل ١١ أيلول، فتجيبها: «لدينا في سوريا سفيرات في باريس وروما وأثينا وبلدان عربية أخرى لديها سفيرات». تقاطع المقدمة شعبان، كاشفة المعنى الضمني لسؤالها: «الولايات المتحدة على دراية بعقلية هذه المنطقة وخلفيتها الثقافية وصعوبة احتكاك المرأة بأوساط رجالية خاصة السياسية، من أين أتتها القناعة بأن المرأة الأمريكية ستكون مهمة اختراقها للأوساط الذكورية بين قوسين كما يروَّج، وهذه الفكرة السائدة ستكون عملية سهلة؟». الواضح أن هذا السؤال يعبر عن مرجعية البرنامج خير تعبير نظراً لما يحمل من أفكار جاهزة ومنمطة عن عقلية المنطقة وعن صعوبة احتكاك المرأة بالأوساط الرجالية السياسية، وعن التبصير بما يمكن أن تفكر فيه الولايات المتحدة الأمريكية، وعن المرأة الساحرة القادرة على اختراق الحصن الحصين للأنظمة العربية إزاء أمريكا!! (هنا يمكن رد السؤال بسهولة إلى معدّي البرنامج: من أين أتتهم كل هذه القناعات التي شكلت هذا السؤال؟). تجيب شعبان متمترسة عند مشكلة الصورة غير المعبرة عن واقع المرأة. والمقدمة تحاول أن تدفع باتجاه أن واقع المرأة في ظل الأوساط المتشددة سوف يجر إلينا اختراقاً آتياً من الغرب بطريقة سحرية وسيلتها المرأة. وربما المضمر الذي لم تصرح به علناً يتمثل بالتشديد على أهمية أن تعيد المرجعية المتشددة النظر فيما يَستجِد من معطيات ومتغيرات بما يحفظ المرجعية عينها. لذلك تتحول المقدمة إلى رزوق بالقول: «أنا أصر للحصول على إجابة هذا الرقم اللغز ٤ سفيرات»... وتكمل سؤالها وتنهيه على طريقة: «البعض يقول» وتجاوب هي عليه بالقول: «ربما لأن المرأة الغربية لديها نوع من الجاذبية والسحر على الرجل العربي الشرقي وما يصعب على السفير الرجل الغربي الحصول عليه يمكن أن يكون أسهل بالنسبة للمرأة. هل يمكن أن يكون ذلك صحيح؟» تجبيها زروق بثلاث لاءات: «لا أعتقد، هذا التعيين ليس بدعة ولا يحصل لأول مرة.» تقفل على الموضوع مستخفة بهذا التحليل ومحاولة إثبات الذات وفتح أفق آخر له: «لا أريد أن أجعل الأمر يقتصر على إرادة من أجل الاختراق بقدر ما أعتبر أنه آن الأوان حتى تتواجد المرأة في مختلف المستويات والمواقع مع التأكيد على ما قالته شعبان أنه لا يكمن اعتبار المرأة في أي دولة ارتقت إلى أسمى المستويات قضيتها ما زالت قائمة...» تقاطعها المقدمة وتصر على سؤالها: «الاختلاف في العقلية هل يؤخذ في عين الاعتبار لدى التعيين؟» توضح زروق بعملية إثبات للذات، محاولة تصويب اتجاه المحطة وفاتحة أفقاً جديداً للموضوع بالقول: «تؤخذ مؤهلات الشخص حين يُعَيَّن. فالمرأة لا بد وأن تُعامَل مع الرجل على قدم المساواة أنا ضد أن نتحدث عن خصوصية». أخيراً في الكلام عن الصعوبات التي تواجه المرأة العربية في العمل الدبلوماسي تروي المقدمة

قصة غلاسبي ورسالتها لصدام حسين تقول له إن النزاع عربي عربي، مرت أمام لجنة التحقيق لكن لا أحد قال ما جرى جرى لأن السفيرة امرأة، بل بالعكس عينت أولبرايت وعينت أربع سفيرات. تتوجه إلى أبو الذهب بالقول: «خطأ بهذا الحجم لو حصل في العالم العربي كيف سيعالَج برأيك»؟ الغريب أن السفيرة تُسلِّم معها فيما قالته إن ذلك كان خطأً دبلوماسياً وليس هذا ما كانت تريده فعلاً السياسة الأمريكية. وتجيبها: «بتاريخ الدبلوماسية الخطأ خطأ والمحاسبة على أساس ما حدث». تقفل على الموضوع وتتوجه إلى رزوق لتسألها: «إن كان ينتابها شعور أنها تحت المجهر كونها امرأة» تجيبها: «السفير سفير في كل الحالات»، تقفل عليها كل الأبواب ولا تعترف بخصوصية المرأة. لتنهي المقدمة الحلقة بالقول: «على نبرة التفاؤل هذه من الضيفات لا فرق بين الدبلوماسية المرأة والدبلوماسي الرجل». وكأني بهذه القفلة أرادت أن تقول للمشاهدين: كلامهن لم يقنعني والمسافة بين كلامهن والواقع ما زالت شاسعة!!

«زواج فريند حل بديل أم مشكلة»؟

مقدمة الحلقة لونا الشبل (١٦٨س)، المشاركات: خديجة مفيد من المغرب، كاتبة وباحثة في قضايا الفكر الإسلامي، محجبة، (١٤١ س) قوطعت ٦ مرات– د.عزيزة الهبري، محامية وأستاذة القانون واشنطن، غير محجبة، (١٠٥ س) قوطعت ٥ مرات – د.ملكة يوسف أستاذة الفقه والقانون المقارن بكلية الحقوق القاهرة، محجبة، (٩٨س) قوطعت مرة واحدة.

تشرح المقدمة (٥١ س) أن القضية بدأت بفكرة طرحها الشيخ الزنداني كبديل عن نظام Girl friend and boy friend الشائع بين بعض أبناء المسلمين في الغرب، منتهية بسؤالين: كيف يُطلَب من المرأة التنازل عن البيت وهو من أهم شروط نجاح العلاقة الزوجية؟– هل يمثل هذا الزواج حلاً للضغوط والمفاسد التي يتعرض لها الشباب المسلم في الغرب؟ يبدو أن اتجاه البرنامج تحدد منذ البداية والذي يتمثل بأن هذا الزواج الميسر لصالح الذكور. يليه تقرير (٦٧ س) من لندن مبرراً طرح البرنامج للموضوع. ثم مقتطفات من المؤتمر الصحفي الذي عقده الشيخ عبد الحميد الزنداني (٢٨ س) يقول: قصدت فيه الزواج الميسر لمن في الغرب هو نكاح لا سفاح ولا متعة بعدما عمّت البلوى في الغرب بشيوع الزنا، عن طريق الأُخذان غير المؤسَّس على قاعدة شرعية. يليه لقاء لمعرفة رأي مجلس الإفتاء الأوروبي (٣٣ س).

وردت ٥ اتصالات من الرجال: الأول (١٥ س) من فيينا يسأل أين حقوق المرأة في هذا الزواج أين حقوق الله؟. الثاني لم يحدد مكانه (١٩ س) يردد قول الله:« انكحوا ما طاب لكم» الإسلام أباح تعدد الزوجات ومنهج السنَّة يرى زواج المتعة حرام ونحن

نرى تعدد الزوجات حل لمشكلة العنوسة.. الثالث (٢٠س) من هولندا يبدأ بقول للإمام علي: «كلما أغلقوا باباً للحلال فتحوا ألف باب للحرام»... ثم يتابع: «زواج المتعة أبيح في الغزوات ثم حُرِّم». ترد المقدمة مؤكدة :«نعم حُرِّم». يكمل المتصل: الآن وجدوا الحاجة فتوى زواج فريند. الرابع من الإمارات (١١س) يرى أن الزنداني أصدر الفتوى لمصلحة الأمة منتقداً إحدى الضيفات بالقول إنها تطلق الكلام على عواهنه. ترد المقدمة: لأ لأ لا أحد يطلق الكلام نحن نتناقش. الاتصال الخامس لم يحدد مكانه (٢٢ س) يرى أن المهم أن يكون للمرأة كيان وأسرة في الغرب المشكلة ليست البيت إنما في بلادنا الشاب دخله محدود. تثني عليه المقدمة: صحيح صحيح. واضح أن ما أتت به هذه الاتصالات يصب في خانة إثبات ذات مرجعية البرنامج إزاء المرجعية الصادرة عنها الفتوى وإزاء المرجعيات الأخرى: هذا الزواج يعد زواجاً شرعياً وهو يلبي حاجة إنما التساؤل عن حقوق المرأة في هذا الزواج مسألة مشروعة، عدم الخلط بينه وبين زواج المتعة، التشديد على تحريم زواج المتعة.

تسأل المقدمة يوسف عن هذا الزواج، تجيبها بشكل إلزامي يقفل على الموضوع: «باطل بطلاناً مطلقاً». تتوجه إلى مفيد، تحاول مفيد أن تتوقف عند السياق الذي أتت به الفكرة (وهذا توجه جديد يدعو إلى مواكبة الفتاوى للمستجدات) واقع الشباب اليوم في الغرب وما يتعرضون له من إثارة جنسية، هذه الفتوى تعد اجتهاداً في إطار الواقع الحالي إنما أتحفظ أن تكون على حساب الحقوق الشرعية التي أعطاها الإسلام للمرأة. وبعملية إثبات للذات الأنثوية الفقهية تجاه المرجعية الفقهية الذكورية تكمل: «على العلماء أن يتنبهوا عندما يفكرون ويجتهدون في أي ظاهرة ألا تكون دائماً على حساب المرأة». تمرر هذه الفكرة المتقدمة والتي تتلاءم مع توجه البرنامج وتكمل: «إذا كان مؤقتاً أقول إنه باطل أما إذا كان مبرمجاً على أساس التحكم بالنسل ويستجيب للرغبة الجنسية بحيث يتمكن الشاب أن تنمو شخصيته...» تقاطعها المقدمة متوجهة إلى أمريكا مع الهبري: «أنتم في الغرب هذه الفتوى موجهة إليكم ما رأيكِ؟» تجيب الهبري بأسلوب تحليلي يتوخى الدقة مما يفتح آفاقاً للموضوع: «لا أعرف إذا ما قدمه الشيخ فتوى أم دعوى اجتماعية؟ توقيت زواج أم برمجة؟ إذا كانت دعوى اجتماعية تثقيفية لإعادة النظر في متطلبات العائلات عند الزواج أُرحِّب بالفكرة مع أن في الغرب موضوع المنزل ليس مشكلة. إنما أسمع من كلامه أنه ييسر الزواج للرجل وأن للمرأة إمكانية التخلي عن حقوقها التي أعطاها إياها القرآن مقابل ماذا؟ مثلاً في القرآن النفقة مقابل القوامة. هل الرجل العصري في الغرب يتخلى عن القوامة مقابل التخلي عن الإنفاق»؟ وهنا بعملية إثبات للذات تفتح أفقاً للموضوع تجاه المرجعية مصدرة الفتوى. تسألها المقدمة: «ألا تعتبرينه تطويراً؟» تجيب، ربما بما يتلاءم مع توجه المحطة: «أخاف من سوء استعماله

بشكل يُخِلّ بالشروط الشرعية» تتجاوز المقدمة كل ما قالته الهبري وتتوجه بسؤال إلى يوسف: «طالما أن أركان الزواج موجودة ومحققة وطالما أن الهدف هو الحلال وتيسير وضع الشبان في الغرب وتنظيم العلاقة الجنسية لماذا باطل؟» تجيب يوسف بإلزام: «الزواج ليس أركان إنه ميثاق وعهد غليظ من الله... هناك مسؤولية شرعية على الولي قبل أن يدفع ابنته إلى من يصلح أو لا يصلح إلى من هو قادر أو غير قادر» وعبثاً تحاول المقدمة، فتتوجه إلى مفيد التي لا تتفق مع يوسف على أن القدرة تتحدد في أن تكون كاملة وشاملة، موضحة: «ان الزواج بتحقق العفة والاستقرار». وهنا تلوح بوادر التقاء يوسف ومفيد من محل أنثوي أو ربما نسوي إسلامي لا يرتاح لتسعير (بمعنى تقريش) الزواج بما يعنيه من تسعير للمرأة. تتحفز المقدمة لتحمي الحوار وتسأل: «أين نية الاستقرار إذا لم يكن هناك مسكن؟» تجيب مفيد: «السكن عند العائلة» توضح المقدمة بطريقة استنطاقية: «لكن زواج فريند يقول يبقى كل منهما في بيت أهله» عندها تقول مفيد: «هذا الزواج مقاربة ذكورية لحل مشكلة اجتماعية». تنفذ المقدمة من هذا الكلام وتذهب باتجاه ردود الفعل المتضاربة على هذا الزواج من خلال التقرير، وتتحول إلى الهبري التي تحاول ببراعة إثبات ذاتها الأنثوية من داخل المرجعية الدينية، جاذبة إلى صفها يوسف ومفيد وبما يتلاءم مع مرجعية البرنامج: «المسكن شيء تفصيلي، استطاع المسلمون أن يداوروا عليه، لكن النقطة التي تكلمت عنها ملكة مهمة. الزواج ليس أركان، النية أساسية في الزواج، الزنداني خرج بهذه الفتوى دون الكلام مع الفتيات، الفتاوى تصدر من الرجال بطريقة لا يقدرون فيها مشاكل المرأة... يجب الجلوس مع المرأة.. هناك يوسف، مفيد.. هل الإجماع فقط للرجال..» تقاطعها المقدمة لتبرز الهدف العميق من طرح هذا الموضوع: «إذن هي دعوة لوجود فقيهات»؟ تُعقِّب مفيد: «موجودات من يفسح لهن المجال للتعبير؟» تتحمس يوسف التي بدت في فهمها للأمور الدينية في بداية الحلقة أكثر تشدداً من الرجال ويخرج كلامها من عقاله المكبوت وبعملية إثبات للذات المرجعية النسوية الإسلامية تجاه مرجعية ذكورية إسلامية تفسر الدين لصالحها: «نحن مستعدات.....المرأة في نص الفقهاء الأحناف وغيرهم محل للاستمتاع... شوفي المهر مقابل البضع.. النفقة مقابل الاستمتاع. والله لم يقل ذلك مطلقاً فهو أعز وأجلّ من أن يجعل المرأة وبضعها ملك لأحد قبل الزواج وبعده».. تقاطعها المقدمة بالقول: «صحيح» تضيف: «المرأة حرة والحرة لا تملك»... «العلم ليس وقفاً على العمائم» تقاطعها المقدمة : «صحيح». تردف: «كلهم أساتذتي وتتلمذت على أيديهم». هنا تخاف الشبل من أن تقوم يوسف بعملية ارتدادية... وتجهض المنجز حتى الآن، فتقاطعها: «لكن ليس وقفاً على العمائم» وتتحول بسرعة إلى مفيد لتسألها لماذا الفقيهات مبعدات؟ لا تجيب مباشرة عن السؤال، ربما فضلت التقاط الأنفاس ليأتي جوابها خالياً من توريط

ما، فتجيب: «ليس هناك مشكلة سكن في الغرب حتى تتخلى النساء عن حقوقها. في الشرق المشكلة اجتماعية، على العلماء تنوير الناس للخضوع للدين وليس للأعراف والتقاليد». ثم تكمل: «أي فتوى أو طرح لا تكون فيه مقاربة المرأة المسلمة العاقلة حاضرة تكون ناقصة» تقفل المقدمة على الموضوع بعدما وصلت إلى مراد البرنامج في توصيل الرسالة إلى الفقهاء. تفتح أخيراً أثر الزواج فريند على ضياع حق الإنفاق على المراة، تسأل: «أين الإنفاق أين القوامة؟» تجيب الهبري: «مشكلته أنه ليس فيه التزام». تنهي المقدمة بسؤال ذي صيغة ثنائية: «هل هو حل بديل أم مشكلة جديدة؟»

من خلال هاتين الحلقتين يتبين لنا مدى الحذر والارتباك أمام الأسئلة المطروحة على مجتمعاتنا والتي أمّلت عليها إعادة النظر فيما هو سائد ومتعارف عليه إن كان بفعل الزمن أو بفعل التغير الذي أصابها، أو بفعل الأحداث الكبرى والمستجدات التي عصفت بها وشكلت لها خضة كفيلة بوضع الكثير من الأمور موضع التساؤل، مما وَلَّد إشكالاً بدت صعوبته كامنة في إلزامية إسقاط العامل الزمني وقياس الحديث على القديم.

ختاماً

بعدما حاولنا تحليل جانب الخطاب المضمر من خلال تحليل الأدوات المستخدمة والطرق المتبعة من قبل العاملين على إنتاجه(٢٢)، يمكننا أن نستنتج ما يلي:

١ – على صعيد السياق الزماني والمكاني لخطاب النساء عن النساء

إن الآلية المتبعة حددت مسار الحلقات بدءاً من العنوان الذي كان غالباً مثقلاً بالثنائيات بقصد الإخفاء، مروراً بالتقديم للموضوع الذي يبت بالأمر ويقال فيه كل شيء قبل البدء بالحوار من خلال الأسئلة الملزِمة التي يتضمنها. ومن ثم التقرير الذي يدَعم المقدمة من خلال اختيار المكان المتوقع مسبقاً ماذا يمكن أن يصدر منه من آراء ومواقف تدعم اتجاه البرنامج، وإنهائه بأجوبة على التساؤلات بشكل إلزامي يستبعد الاحتمالات الأخرى. والاتصالات ذات النفحة الدينية القيمية المحافظة، التي طغى عليها اتصال الذكور، مؤدية دوراً في تدعيم الاندماج الجمعي. وانتهاء باستدعاء الضيفات المشاركات اللواتي إما لا يتكلمن إلا ما يُنتظَر منهن(٢٣)، وإمّا ضيفات معروف عنهن أن

(٢٢) Voir à ce propos: Naser Marleine. "Les Arabes et L'Islam vus par les manuels scolaires français". Ed. Karthala, 2001.

(٢٣) Bourdieu. "Analyse d'un passage à l'antenne". in manière de voir - "culture, ideologie et société" mars 1997. éd la découverte. pp. 34-36.

لديهن مشروعهن الشخصي في الكلام يسعين إلى إثبات ذواتهن بشكل يُمكِّنهن من إعطاء أفق للحوار وأحياناً من إضافة جديد ما. وهؤلاء كما لاحظنا لم تتم دعوتهن من أجل آرائهن بذاتها إنما لغاية علائقية، أي بقصد إضعافهن من خلال التهويل في اتهامهن ودفعهن للقيام بعمليات تبرير ودفاع على طريقة «أُحرِجت فأُخرِجَت». أو أن اتجاههن مطلوب إبرازه ليلعب دور العاكس للاتجاه المطلوب الترويج له على طريقة «والضد يُظهر حسنه الضد». لأن المطلوب منهن بالإجمال إخفاء نقاط التقائهن الجوهرية ومسرحة نقاط تباعدهن، بما يشبه النيوتوتاليتارية الجديدة التي لا تتمثل بمنع الحوار إنما بالإجبار على القيام به[٢٤]. وخدمة لهذا الخطاب بدا دور غير المحجبات عاكساً لدور المحجبات: منهن من فهمت اللعبة ولم تنجرّ لها، ومنهن من لم تكشفها فاستمرت بها ووقعت في الفخ، ومنهن من كشفتها وتواطأت معها.

وأخيراً بدورالمقدمة/المذيعة التي رأينا كيف وزعت الأدوار بطريقة ممسرحة، فكانت تبدي ارتياحها من فلانة مكررة ما أتت به، وتنزعج من أخرى[٢٥] معلقة على ما قالته باستخفاف وسخرية[٢٦]. بالإجمال لعبت المقدمة دوراً رائعاً لحفظ النظام الرمزي من خلال البحث عن المثير والمشهدي بما يستدعي المسرحة والتي أبرزتها عدة أمور منها: صيغ المبالغة والكلمات الاستثنائية التي تولد هلوسات ومخاوف ورعب وتمثلات خاطئة–الجمل الإلزامية والجمل التي تحمل ازدواجية– صيغ التمنين مقابل السماح بالكلام بما يعزز الاندماج الجمعي– اختزال الشعوب والآراء إلى ضدين–التحرش من خلال الكلمات ويتمثل ذلك بتكرارها وجر الخصم لاستعمالها[٢٧]– وضع الآخر الذي لا يتلاءم مع الاندماج الجمعي في موقع تبريري لإضعافه– والاستفادة مما يسمى بعنف اللغة من أجل تصغير الخصم ووضعه في حالة ضعف[٢٨]– استعمال كليشهات وصيغ جاهزة مما يعيق تقدم الحوار الذي يُراد له التوقف عند نقطة دون التجاوز إلى نقطة أخرى. فهذا الكلام تحصيل حاصل بما يقفل على الموضوع، بمعنى ما تدميري. بعكس الخطاب ذي المدى الذي هو خطاب استكشافي ممتدة جذوره فينا، قابلاً للاستثمار، يعلِم، فيه شيء من الاستمرارية ويبدي ميلاً للبناء.[٢٩] ورأينا أن المقدمة الواقعة بين مطرقة الجدية وسندان الإثارة فضلت الكلام البسيط الممكن فهمه من الجمهور، المحرك

(٢٥) كما فعلت في حلقة «المرأة والعمل الدبلوماسي» مع بثينة شعبان ونزيهه زروق.

(٢٦) كما فعلت في حلقة «العمل الدرامي النسوي» مع ايناس الدغيدي.

(٢٧) Jacques Perani. ‘‘Comment progresser en communication avec la dialectique, ou l’art du combat dans la communication’’. éd du puits fleuri. Paris 1997. p. 89.

(٢٨) Voir à ce propos: Jean Jacques Lecercle. ‘‘La violence du langage’’ PUF. Traduit de l’anglais par Michele Garlati. Paris 1996.

(٢٩) LeGrand. op. cit. p. 51.

لمراكز اهتماماتهم، المُمَسرَح الذي يثير فضولهم. وليكون الكلام بسيطاً استعملت كلمات التقييد: لكن، في حين، على الرغم الخ. وكانت تطرح تأكيداً لتصححه، تضخم ظاهرة ما لتحبطها فيما بعد. تستخدم التعاقب في الكلام: إما هذا وإما ذاك. تقيس حادثة محدودة على الإنسانية. تستخدم المحاججة المُنمَّطة. ولذلك أمكننا كشف الكبت الذاتي الذي حال دون تقدم الخطاب: فحَجَبت المحطة مرجعيتها بمرجعية مطلقة هي الإسلام، وحَجَب البرنامجُ مرجعيته بمرجعية مرنة هي الإسلامي الحداثي. وحُجِب المُخاطِب الفعلي بمُخاطِب مفترض يميل نحو تطوير الذات والتحرك مع المعطيات المستجدة دون المس بالثوابت. وحُجِب تمثل الزمان بحقائق بدت عامة، وتمثل المكان بأمكنة عامة. وتمَّت مرواغة المحرمات من خلال استباق المُخاطَب للاعتراضات المحتملة. باختصار أُريدَ لهذا الخطاب كما كل خطاب[٣٠] أن يلعب ثلاث وظائف: وظيفة السلطة/السلطة المضادة وهنا تتمثل بالسلطة الدينية التي هي فوق الجميع ممن يسلمون بها أو يعارضونها؛ وظيفة تنظيم الحياة اليومية أي الخطاب المبرر للعادات ما يجب فعله وما لايجب؛ وظيفة المسرحة، عرض الحالات.

٢ – على صعيد سمات الخطاب كما بدت لنا

من المهم أن نرى كيف أن هذا الخطاب الكابت لذاته، تجاه الغرب وتجاه الخطاب الديني، جهد لكبت الأخريات على المستويات الثلاثة التي تكلمنا عنها والتي قسمنا الحلقات على أساسها:

أ – في خانة **المرأة كفاعل ناشط**، بدا الخطاب **محاكماتياً**، يبحث عن متهمين وأكباش محرقة، ويكافئ آخرين. وانطلق بالمحاكمة على أساس قيمي أخلاقي بحت ولم يلتفت إلى نجاح العمل كعمل. فأتت محاكمته للأعمال الدرامية انطلاقاً من مدى خدمة هذه الأعمال لقضايا المرأة (امرأة الخطاب) بما يتناسب مع العادات والتقاليد. وكانت محاكمة النساء اللواتي يصلن إلى مراكز القرار ويتصرفن كالرجال. كذلك اتُّهِمَت الأنظمة السياسية العربية أنها تحولت إلى جمهوريات وراثية، والقمم النسائية إلى منابر رمزية. وتم التنويه بنموذج الاستحقاق الفردي المنتزع عن جدارة المتمثل بالعشراوي.

ب – ارتدى أيضاً الخطاب **طابعاً تبريرياً** لعدم وصول المرأة إلى مراكز القرار مبعداً التهمة عن الإسلام محيلاً المسؤولية إلى: النعرة السلفية ونظرة رجال الدين المتشددة للمرأة، الموروثات البالية، عدم العمل على تمكين المرأة على مستوى القاعدة، المجتمعات القبلية والأبوية الذكورية، القيادات الدينية والسياسية التي لا تقوم بواجب

(٣٠) Charaudeau. op. cit. p. 113.

تحديث الدولة، والأحزاب السياسية التي لا تشجع على ترشيح نساء بدلاً من ترشيح أولاد الرؤساء...

ج – في زاوية **المرأة كموضوع** بدا **خطاباً ممسرحاً** قائماً على ازدواجية: **التخويف والتطمين**. وتمثلت الحبكة المسرحية بالعمل على تضخيم الظاهرة المراد الكلام عنها والتي سبب وجودها العولمة والانفتاح والشركات والدول الكبرى والغرب... الخ، لدرجة التخويف منها، ثم البحث عن حل لها بشكل يطمئن من تمت إخافتهم وذلك بالعودة إلى ديننا القويم وتراثنا وعاداتنا. وفي هذه الحالة تَحوَّل إلى **خطاب استحواذي**، مفتاح الحل بيديه وحده، مثلاً: تفسير هوس التسوق عند النساء الخليجيات ضحايا الإعلانات والمهرجانات والتسليفات والمسابقات بالفراغ الوقتي والروحي والفكري الذي يعشن فيه في المجتمعات الخليجية. هذا الكلام الجديد عن وضع المرأة الخليجية سرعان ما كُبِتَ بالحل بالعودة إلى ديننا الذي أوصانا بالاعتدال. كذلك في موضوع استغلال المرأة في السياحة، أُجهِضَت محاولات التركيز على حالة الإحباط والانكسار والتلوث البصري وقيم العولمة وإسرائيل والعصابات بالحل السحري المتمثل بالعودة إلى القيم. أيضاً الرد على استغلال الرجل لأموال زوجته بعدما سمح لها بالعمل، في أن الإسلام أعطاها الذمة المالية المستقلة، غيَّب الكلام عن الظروف الاقتصادية الصعبة.

د – في زاوية **وضع المرأة إزاء المستجدات وفي عالم متغير** بدا **خطاباً مجدداً لنفسه في حدود المتاح بدافع الخوف من إلزامية التجديد المفروضة من الغير**، لا سيما بعد ١١ أيلول، التي قد تتخطى ما هو متاح فيصبح الخطاب مستباحاً للآخر. لذلك بدا للخطاب وجهان: الأول **تسليمي** بحتمية ما حصل والوجه الآخر **إنقاذي** يتلافى ما أمكن من أضرار بالتغيير والتحديث التلقائي، يُجَهِّز ذاته لما هو آتي والآتي ربما يكون أعظم. يُستشَفّ ذلك من خلال الكلام الحتمي عن تكنولوجيا المعلومات: «لا بد أن ندرك حتماً أن خللاً واضحاً وعميقاً في الرؤية والتصورات التنموية هو الذي سبب دون شك هذه الفجوة النوعية الواسعة». وبدت ملامح الخوف في هذه الخطاب في عدة أمكنة: حديث عن خوف المرأة من الكومبيوتر– الشركات المتعددة الجنسية تضغط على المنظمات الدولية لعمل دورات للنساء في مجال التكنولوجيا لاستغلالهن بأجور زهيدة فيما بعد – خوف من أن ترمي المرأة بنفسها في التجارة بمتاهات الكترونية –خوف من مواقع الكترونية تضرها. أمريكا بعد ١١ أيلول عَيَّنَت أربع سفيرات لها في البلدان العربية بهدف اختراق السياسيين العرب الذكور والتغرير بهم، أو بهدف إعطائهم الأمثولة ودفعهم للإصلاح– الدول العربية بدورها عينت بعض السفيرات لها بسبب

الضغوطات الأمريكية، أي أتى التعيين كديكور ورهان سياسي وليس نتيجة استحقاق مهني. زواج فريند اعتُبر مقاربة ذكورية لحل مشكلة اجتماعية في الغرب بسبب تغييب الفقيهات.

٣ – على صعيد نقاط الاختراق

هذا الخطاب، سواء كان ظاهرياً خائفاً من الغرب ومن أمريكا أم كارهاً لهما، بدا لنا ملزماً نفسه بثوابت الدين، كابتاً لذاته تجاه الغرب، مثبتاً لذاته تجاه المرجعية المتشددة المتغافلة عن المستجدات، وتجاه الاتجاهات العلمانية واليسارية والنسوية والأنظمة السياسية المتهمة بتقليد الغرب، الخ. لذلك أمكن تسجيل بعض نقاط التقدم في عدة محاور على التشدد وعلى الأنظمة السياسية: في حلقة المرأة والسياسة التقت المقدمة مع المحاورات اللواتي كان لإحداهن مرجعية خطاب الأمم المتحدة ولاثنتين مرجعيات سياسية على اعتبار أن تمكين المراة من القاعدة أجدى من القمة وأن القمم تنفع في مواجهة النعرة السلفية وأن من الضروري أن تقوم النخب السياسية والدينية بتحديث الدولة وتفردت بوتو بدعوة البرلمانات للنظر في الطلاق والحضانة، ودعوة الأحزاب أن ترشح نساء عوضاً عن ترشيح أولاد الرؤساء. في حلقة استغلال الرجل لأموال زوجته طُرِحَت مسألة الإنفاق والقوامة على بساط البحث وإن بقيت لصالح التشدد. طُرِحَت مسألة تقييم العمل المنزلي من قبل المحجبة وأنه لا عيب في مشاركة الرجل في ذلك. في حلقة «زواج فريند» طُرِحَت مسألة مقاربة الفقهاء الذكورية وضرورة أخذ رأي النساء وإشراك الفقيهات وأن العلم لا يقتصر على العمائم. كذلك طُرِحَت مسألة التمييز الإيجابي للمرأة في التشريعات والشرع أساساً. كذلك مسألة إدماج الجندر وتكنولوجيا المعلومات في الخطط التربوية، وإن بقيت عنواناً يصنف في خانة الشعارات.

الملاحظ أنه في الحلقات التي التقت فيها غير المحجبات مع المحجبات تقدَّم الخطاب وسجَّل نقاطاً إيجابية، أما في الحلقات التي لم يلتقيا فيها تمترس الخطاب مكانه وانتفى الحوار وهي الأكثر عدداً. وفي الأمكنة التي كانت فيها المحاوِرات ممن يمثلن مرجعية سياسية أو دولية مما خولهن إمكانية انتقاد الأنظمة السياسية والموروثات العتيقة وسوء فهم الدين، تَقدَّم الحوار بعض الشيء، أما اللواتي كن يمثلن فاعلية ما دبلوماسية أو غيرها ولم يتجاوبن مع اتجاه المحطة في إطلاق تسميات ملموسة بقين يتكلمن في العام أو بشكل منمط وبقيت المحطة على تصلُّبها تجمد الحوار مكانه. كذلك لاحظنا مفارقة مؤداها أن النساء اللواتي عايشن مرحلة النسوية في الستينات والسبعينات وتحمسن لها لم يعترفن بخصوصية عمل المرأة ولم يركزن على مسألة التمييز الإيجابي، في حين ركَّزت المحجبات والمحطة على هذه الخصوصية وإن كان

هذا التركيز ربما كان بحاجة إلى بلورة أكثر كي يمكننا الجزم إن كان صادراً عن اقتناع أم مجاراة لموضة الأفكار التي ترافقت مع العولمة[٣١] أم استُخدِمت بمثابة كابح أمام تجاوز المرأة حدود الأدوار المرسومة لها.

وأخيراً تبقى مجموعة أسئلة تدور في خلدنا: هل هذا الخطاب هو فعلاً من النساء وإلى النساء وعن النساء؟ أم أنه أحكام مسبقة ومحاكمة غير متكافئة أطرافها نساء وضعن في قفص واحد مُتَّهِمات ومُتَّهَمات، وجمهور مختار سلفاً؟ إلى أي مدى تمكنت الجزيرة أن توازن بين قطبي الجدية والإثارة؟ وإلى أي مدى كان هذا الخطاب بمجمله استكشافياً لمختلف الاحتمالات والجوانب والآفاق؟ وهل يمكن أن يكون الخطاب استكشافياً إذا كان منمطاً في فهمه للظواهر والمستجدات وفي نظرته إلى الشعوب والدول والأنظمة...الخ، وإذا كان يَصِمُ الذات بالكمال والطهرية ويطلق الأحكام السلبية على الآخر أو يجلد الذات وينبهر بالآخر؟ أي بما معناه يقف على أطراف الثنائيات ويتمترس عندها، ويردد صداه بهدف جذب الجمهور. ألا يُثقِل ذلك الخطاب ويقيِّده ويَحُدّ من مهمته الاستكشافية؟ وبالتالي كيف يمكن للخطاب المنمط المحدودة قدرته على الاستكشاف أن يكون خطاباً تثميرياً؟؟؟!

(٣١) Elisabeth G. Sledziewski "Droits des femmes -un nouvel âge de l'universel" in Mondialisation et sociétés culturelles - l'incertain de future, sous la direction de Marina Ricciaar delli, Sabine Urban, Kotas Manopoulos .PUF Paris 2000, p. 331.